رمضان المسيحى

الطبعة الثانية

عادل سعد

دار نشر
أنباء روسيا
Russia News
www.russiannewsar.com

الناشر
أنباء روسيا
Russia News
www.russiannewsar.com
رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير
د. حسين الشافعى
secertary_ert@yahoo.com
المراسلات
القاهرة – مدينة العبور
44971 مكتب بريد جمعية أحمد عرابي - ص. ب. 72
Tel. & Fax: + (202) 24698170 & 071
+ (20) 01006774027

الإخراج الفني/ أحمد عثمان

أسرة التحرير / شيماء محمد - منى فرج

الطباعة
دار الطباعة المتميزة
مدينة العبور – القاهرة
Tel. & Fax: + (202) 44789644 & 46

الطبعة الأولى 2015
روايات الهلال - دار الهلال
الطبعة الثانية 2017
دار نشر أنباء روسيا
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر.
لا يحق إعادة طبع أو نسخ محتويات هذا الكتاب إلكترونياً أو ضوئياً دونما إذن كتابي من الناشر.
رقم الإيداع : 2017 / 1079
الترقيم الدولي : 978 - 977 - 07 - 1720 - 2

بالتعاون مع

المؤسسة المصرية الروسية للثقافة و العلوم
Египетско-российский Фонд культуры и наук
www.a-rfcs.org

عادل سعد

رمضان المسيحي

دار نشر

www.russiannewsar.com

قال المغفل للمغفول: إزاي نكون إحنا من الطين، »
ونستحمى.. ولا ندوبشي
ف البحر أما كلام مجانين؟!
سوّح بقى سيدنا المغفول.. وكان معاه ف الرد حريص..
قال له: صحيح إحنا من الطين..
بس احنا من طين البلاليص».
شاعر مدينتنا عم جلال عُلما.
كتب تلك الكلمات، ولم يحقق أي شهرة، ومات.

و نحن من أبناء تلك البلد البعيدة أسيوط، ولدتنا أمهاتنا فقراء، لكننا عشنا..

نقلي قشر البطيخ، ونبيعه للغرباء على أنه سمك فيليه، ويتهموننا بالبخل، وبأن قرد وأسيوطي خرَبا مدينة، وأحيانا يقعدون أمام التليفزيون؛ ليتفرجوا علينا، و يحبسونا في ذلك القفص المضيء من الحديد وتتجدد أحزاننا على من عرفناهم، عند مقارنتهم بمن يقفزون من داخل الجهاز كالقرود.

محمود العلواني- صديقنا- كان يتدرب يومياً بالجري حافياً- ذهاباً وعودة- من قريته علوان على بعد ٢٥ كيلومتراً من أسيوط، أجبرناه أن يحشر أصابع قدميه الحطب في «سبايكس» العدائين؛ حتى لا يفضحنا، ومع دوران الـ٤٠٠ متر الأولى من الماراثون رمى الحذاء في وجوهنا، وطار حافياً؛ ليخترق بعد ساعة ونصف الساعة شريط إستاد القاهرة، في المركز الأول، بطلاً لمصر، ضارباً كل من خلفه بأكثر من كيلومتر.

العلواني، أجير في الأرض، وأب لأربعة أطفال.

على طريق أسيوط السريع مرت عربة نقل، على ساقين حسدتهما الرياح، وانزوى العلواني في قريته المظلمة علوان، مبتور الساقين.

هؤلاء الثيران والحمير، كنت واحداً منهم، بل وشاركت في استفتاء، انتهى بالحكم القائل إن سيد كيلاني جلب العار على أهله ؛ لأنه وفقاً لشهادة الشهود: «بياكل مكرونة ويلبس فانلات نص كم» ولم يعارض أحد باستثناء محمود أبو منجل الذي رفع حاجبيه مستفسرا : « شفته انت ؟ مع مكرونة دي؟».

وفي تلك الأيام سافرت للإسكندرية- وأنا طالب- لأعمل حمّالاً بالميناء، وحضرت بالمصادفة مباراة، بين كلية سان مارك، المقامة على الطراز الفرنسي، والتي تخرج فيها الملك حسين عاهل الأردن، و نجم السينما عمر الشريف وصوفيا ملكة أسبانيا ، وقرية درنكة، النائمة ببيوت الطين تحت رمال وكهوف هضبة الجبل الغربي، والتي تخرج فيها خُط الصعيد القاتل الشهير، ودُفن تحت ترابها الشيخ بخيت الذي لا يسمع عنه أحد.

لم تكن «درنكة» وسكانها الذين يقتلون بعضهم لقطع الوقت،تعرف لماذا يقذفون الكرة الطائرة ويمنعونها من السقوط على الأرض كالمجانين؟ حتى حل أحدهم اللغز، وخطط المربع الوحيد بنادي القرية ونصب شبكة، ولما ضاق الملعب بالمتزاحمين، وفهموا أصول التحكيم، انتشرت اللعبة في الحقول، بشد قطعة قماش أو حبل بين نخلتين والباقي ملعب، وصار في درنكة آلاف اللاعبين، وصعدت لتنافس الأهلي والزمالك، وكان من حظي أن أحضر مباراتها مع سان مارك في الدوري الممتاز.

في ملعب سان مارك، حضرنا أربعة مشجعين فقط لدرنكة، بعد نفضنا وفحصنا من أفراد الأمن بعناية على البوابات،والتأكد من أننا من أصحاب البطاقات، ومن اللحظات الأولى باع أغلبنا القضية، منحازاً لعذوبة مشجعات الفريق المنافس، وغنائهن الجماعي، وداخت عيوننا من دوران الأثداء الناعمة، وانكمشنا أكثر على أنفسنا عند نزول فريق سان مارك الملعب ببدل التدريب الزرقاء الفاخرة، وخلع اللاعبون بالشورت

الرمادي والفانلة الذهبية الصفراء، وبدأ تدريب الضربات الساحقة على الشبكة وارتفعت صيحات الإعجاب.

ووصلت فرقتنا، بالجلابيب، كخيط من تغريبة عمال التراحيل، باستثناء البعض بالبنطلون والقميص وشبشب، وأمرهم الكوتش أبو ليفة بالتسخين، فخلعوا هلاهيلهم فوق بعضها في كوم، وفوقها - حتى لا تطير - النعال والشباشب والصنادل، وظهر من تحت ستائر الجلابيب سروال وفانلة، يصعب تحديد لونهما، وكان الفريق كل لاعب لون، وأغلب اللاعبين حفاة، وبعضهم نسي أن يخلع عمامته، فانطلقت الضحكات والقفشات في جوانب المدرج.

وعلا صياحهم خشنا كنشارة الخشب: «ديب يا دمال يا ابن الدزمة الدلابية (جيب يا جمال يا ابن الجزمة الجلابية) يا دلال اتدننت؟ (يا جلال اتجننت؟) وهكذا»؛ لأن الأبجدية العربية ٢٨ حرفاً، لكنها في درنكة ٢٧ فقط، ففريقنا - مثل كل قرية درنكة - ينطق الجيم دالاً، ولا أحد يعرف سبب معاداتهم لحرف الجيم، لدرجة أنهم لا ينطقونه أبداً، وبالطبع لم يكن هذا وقته؛ ليفهم الحكم - أو غيره - إنها ربما كانت إحدى لهجات قريش أو اليمن، لكن أمكن السيطرة على الموقف.

وكان مع المدرب قلم فلوماستر عريض لكتابة الأرقام على ظهورهم إذا لزم الأمر، وجلب أحدهم كيساً من القماش، تقيأ ثلاث كرات مرهقة، ودخلت الملعب أقدام أثارت فزع الأرضية الباركيه؛ لترتفع الأكف الخشنة من العزق والحرث، وتضرب من أعلى الشبكة، كرات كمدافع الهاون، وساد الصالة المغطاة المكيفة الصمت.

وكانت مباراة، ولا أحلى، برغم أنها من طرف واحد، وانضم إلينا أحلى جمهور من بنات الإسكندرية، واكتسح الحفاة الملعب، ووقفوا يجففون عرقهم في جلابيبهم.

لكن كل ما أقوله كلام فارغ؛ لأنه لا يُضحك؛ ولأن حياتنا لم تكن كلها انتصارات، بل تعرضنا لهزائم مريرة.

وتلك رواية أخرى، لا أحكيها هنا- لأنها طويلة- عن بعض هؤلاء، عندما سافروا في أواخر السبعينيات لأوروبا، وما جرى هناك.

-١-

وسط عدسات التليفزيون، تناول القربان؛ ليولد على الهواء مباشرة مسيحياً من جديد، وبعد مراسم تغطيسه وتعميده، انحنى خاضعاً، ولما نهض رسم البطرك علامة التثليث على صدره، وأعلنت المذيعة في وقار وهي تتابع طقوس الكنيسة البطيئة: رمضان تذوق قطعة صغيرة ورقيقة من الخبز (البرشان) مغموسة في القليل من الخمر الذي يمثل دم المسيح، ورمضان صار الآن واحداً من أبناء الكنيسة، مسيحياً، تعمّد ببيت الرب، وتناول القربان المقدس، ونال بركة «سر الأفخارستيا»، وحرصاً على حياته، صار في حماية اليونان، ولاجئاً سياسياً؛ لأن الهمج قد يقتلونه كأحد المرتدين.

******

كان ذلك يتكرر كثيراً، في التليفزيون اليوناني، ويُشعرنا بالغضب، الفرق أننا في هذه المرة نعرف رمضان.

الغرب يتعمد إهانتنا، أما رمضان نفسه فقد توقعت أن يبصق في وجهي، أو على الأقل يصيح كعادته:

« وإنت مال دين أمك؟»

لكنه كان في آخر المساء يقف على رجل ونصف كالمعتاد عند مقهى ناصية الشارع، يتقي شمس منتصف الليل، بقبعة كاوبوي أمريكي، لم أر مثلها في أفلام الغرب، حمراء، على معطف أبيض فاخر، حريمي... يعلوه فرو كثيف... وبصدره صفوف من الأزرار النحاس.. وبنطلون هيلانكا أخضر وحزام عريض أسود لامع.

وكنت أنوي ألا أتحدث معه، وأتعامل معه باشمئزاز واحتقار.

لكنه هو الذي فعل، وبادرني آمراً متهكماً: «يا تلميذ تعالَ هنا».

شعرت بالحرج، وتوقعت أن يسأل: «هل شاهدت التليفزيون؟».

ورتّبت كيف سأهاجمه، لكنه سحبني على طاولة، وأزاح ما عليها ووضع أمامي أوراقاً وقلماً وقال أكتب:

«الست جمالات حسبو حنفي.

أم فتحي.

البقاء للّه.. وأبو فتحي زوجك رمضان قاسم العربجي والمقيم جهتنا في اليونان مات.

أولاد الحلال دفنوا المرحوم وساعدونا في جمع مستحقاته وبيع ممتلكاته، ورمضان كان غلبان وشقيان، وكل ما ترك ٢٠ ورقة (الورقة مئة دولار)؛ لذلك نرسل لكم المبلغ لرعاية أم محمود (أمه) والعيال؛ وحتى لا يقع المبلغ في أيدي أولاد الحرام وشدّي حيلك.

وإنا للّه وإنا إليه راجعون».

من طرف: أصدقاء المرحوم

كان الخطاب قصيراً، مقارنة بكل الخطابات السابقة، لكنه مؤثر.

وشعرت بالحزن على موت رمضان، وانتظرت أن يضيف شيئاً، لكنه عاد ليقول: «كفاية عليهم كده».

قلت: «لكن... لماذا ألفي دولار..؟ يمكنك زيادة خمسين؛ حتى لا تكون الحكاية مكشوفة، ثم ألا يوجد أحد هنا يعرفك؟.. أقصد ربما بعد أن تصلهم الفلوس يخبرهم أحد بأنك حي».

صاح هائجاً وهو يتلفت حوله باحثاً: ".. أنا رتبت كل حاجة.. وما صدقت خلصت.. مين ده؟... وادفع غرامة تاني؟. ده أنا أطلع دين أمه...."

ثم عاد مردداً:

. .. «همه ما يعرفوش حد من هنا... ولا حد من هنا يعرف حد من هناك... وبعديـن ما يعرفوش يعني إيه دولار.. اسـتر يحت يا أسـتاذ...؟ اكتب بقى العلـوان (العنـوان)..... يعني محدش يعرف مكانهـم والحكاية دي غير سيادتك...سامع؟».

في نبرته تهديد.. طأطأت رأسـي موافقاً، وبصقت على حواف المظروف، وأغلقته.

ماتيلـدا تحـوم علـى رأس طاولتنـا، تتابـع الـورق وصراخنـا، ببطـن عـار، ينتفـخ أعلـى البنطلـون الأبيـض، وتميل علـى رمضـان؛ لتضغط ثدييهـا في كتفـه؛ بينمـا قمة مؤخرتهـا للجميـع، ولما كتبـت العنوان وأخـذ رمضـان المظـروف فهمت ماتيلـدا أن الشـجار بيننا انتهـى على خير، فهمسـت: «رااااماذاااان... إلا ذو»، كانـت تقول باليونانيـة: «رمضان تعال هنـا»، وشـعرها الأصفر يسـقط علـى حواجبهـا المنتوفة وأحمر شـفتيها، وعيناها اللتان تتحرشان برمضان..

نظـر نحوي لـيرى تأثير تلهفهـا عليه، وقال وهو يـدس الخطاب بجيب المعطـف: «أنـا تعبـان... ما تاخـد حتة اللحمـة دي وتدبـح؟»، نظرت نحوه و نحوها مرتبكاً.

قـال ضاحكاً: «جـرّب معاها.. دي.. عاوزاه..على طـول.. على طول»؛ ومد ذراعه بعلامة النكاح...

فابتسمت وطأطأت برأسها مؤيدة كل ما يقول وقلدت حركة يده.

مـدّ يده من تحـت يده الأخرى نحـو بطنها؛ ليقرصهـا.. وقفزت صارخة وهي تضحك.

******

رمضان وجماعة العربجية قدامى منطقة تزيزيفيز... وعندما سكنت مع ثلاثة زملاء عند خالتي تولا.. كان واضحاً أن المنطقة شعبية وفقيرة.. وفي ظهرنا حظائر للخيول وسباق الخيل.

بجوارنا مصري يعمل سائساً معه أسرته وزوجته، الحاج إبراهيم يصلي ويصوم رمضان، وطفلته الصغيرة مها ٥ سنوات تتحدث اليونانية أفضل منا جميعاً، والبنت الكبرى كاليونانيات بالجينز الملون الضيق حتى منتصف الركبة، وتمر أمام حديقتنا، وكان رأي خالتي تولا أن مؤخرتها جميلة.

مقهى العربجية فرض نفسه، فقد كانت ذات تقاليد لا تعبأ بصمت أثينا المقدس من الساعة الثالثة إلى الخامسة عصراً بحكم القانون، وعامرة طوال الوقت، بسبَ الدين والزجاجات التي تطير والمعارك.

أغلب رواد المقهى من العاملين بخدمة الخيول بمضمار السباق، وكلهم كما قال سنقر:

«قمشجية عارف يعني إيه؟ يعني عربجية، لكن لا عندهم عربية ولا حصان.»

المقهى الضيق خمس طاولات، وهو تقريباً «غرزة»، لكن في ساعات الذروة المصرية يتمدد؛ وحتى لا يتعرض صاحب المقهى للقانون يقعد من لا يجد كرسياً على الرصيف مع الشاي أو القهوة أو الزجاجة وامرأة.

غير ماتيلدا يتردد عشرات على المقهى بعد فشلهن في اصطياد الزبائن، أغلبهن فوق الأربعين، ويتحرشن بالذكور طوال الوقت، لكن المزاج المصري لا يتحقق إلا بسحب المطاوي لاختطاف واحدة من زميل آخر ومعايرته بذلك أمام الرجال.

******

دخـل على رصيف المقهى سـيد بريمو، شـعره يلمع بالدهـان ويدخّن سيجارة داخل مبسم طويل، ويرتدي بذلة جينز.

كان عملاقـاً.. وجلس على منضدة بجوارنـا وبصق في وجه رمضان وكأنه يتحدث لشخص آخر قائلاً:

«إيه اللي عملته ده يا وسخ..؟»

انتفض رمضان قائلا: « زمان يا " جيهه» كنت بتقول أرحَلك وتاكل عرقي وفلوسـي عشـان تسـكت وما تبلغـش البوليـس؟ دلوقت أنـا اللي ممكن أدخلك السجن».

ـ «وعلشان تحبسني بعت دينك يا دين أمك ».

كان يقذف في جوفه بكأس كونياك سريع.

ـ أنا مسلم واعرف ربنا اكتر منك... وربنا قال الدين في القلب». »

أجاب رمضان.

شخر سيد قائلاً: « ربنا قال كده إمتى؟ ما سمعتش؟»

قفز سنقر قائلاً: «عملت كداا ليه؟ وأغضبت ربنا عليك يا رمضان».

قال رمضان: «دين ربنا قال: فيه جنة... وفي نار..

... الجنـة... نسـوان وماتيلـدا وويسـكي ومارلبـورو وفـراخ وخـوخ جورمادس..

والنار هناك... في الأوضة الحر... وأمي الزهقانة.. وريحة البول.. ومراتي والأربـع عيال وبوابير الجـاز والفول والطعمية والسـجاير الفرط والموت في خنـق الأتوبيـس.. » وعاد ليوجه كلامه لسـيد: «وبعديـن ارحمنا عامل مندوب ربنا وكل يوم تنط على ثلاث نسـوان وتقربع قزازة ويسـكي...

«داا غير اللي بتعمله مع الواد اليوناني صاحبك».

في الجزء الأخير علا صوته، وتوقعت أن تبدأ معركة.. وتراجعت قليلاً.. لكن العملاق انتظر.. وصاح على صاحبة المقهى: «.. قهوة متريو.. وكاس أوزو للمفضوح بتاعنا».

صاح علي الغتيت.. وكان على المنضدة المجاورة يدفن رأسه في حمالة ثديين لصديقته غالا العجوز، وهي تبعده في رفق فيعود مرتميا للمفارق؛ ليلاعبها قائلاً: «دا مش بتاعك وحدك داا بتاعنا كلنا... بتاعنا كلنا».. ومدّ يده كأنها قضيبه... مهدداً وشارحاً لها: «بتاعنا داا طلع في التليفزيون».

انتفض رمضان واقفاً، وقذف الكوب في وجه الغتيت.

انقلبت الطاولة... وخرجت هارباً.

-٢-

وصلت أثينا مع أستاذ جامعة نصاب من أسيوط، مضمون مئة في المئة، هكذا وصفه صديقي محمد صلاح جناح فريق كرة اليد، وفكرت كصانع ألعاب للفريق أن اليونان بفتياتها الفاتنات تنتظرنا.

خمسون شاباً هبطوا على ميدان "أمونيا" بقلب أثينا.

نزلنا من الأتوبيس، في وقت العصر، وخيوط شمس حريرية تداعبنا .

وبتوجيهات قائد الرحلة مندوب الدكتور نصار، تدفقنا لميدان "سي دغما" سيراً على الأقدام.

كان الوقت قاتلاً؛ لأننا نتقاطع مع الحوريات جيئةً وذهاباً بفساتينهن القصيرة جداً والشورتات الملتهبة والتي شيرتات الكاشفة للبطون، وأنسجتها القطنية الشفافة تظهر حلمات صدور ساحرة وعيوننا عاجزة عن الملاحقة.

******

ملامحنا تخشبت وأصابنا صداع جماعي.

سمراء تتبعها شقراء، وهيفاء القوام مع ز نجية ساحرة، وبرونزية بلون الشمس، وسيقانهن طويلة وجميلة ونهودهن مشدودة، على ملابس تغري بفك أزرارها.

تحرك القطار الصعيدي في وسط أثينا، مع حقائبنا، وعيوننا، على السيقان والمؤخرات، ومشهد الحرس اليوناني في زيه التقليدي بالتنورة القصيرة والحذاء السفينة والجوارب المطرزة وغطاء الرأس الأحمر والبندقية، يقترب معلناً قرب وصولنا لميدان "سي دغما" الشهير.

من أرض الميدان الفسيح طار الحمام.

ومن زجاج أحد الدكاكين بالميدان هتفت غانية بالعربية: «تعال ياحبيبي».

كانت كما نتمنى، عارية تماماً، وتصلّبت دوائر عيوننا على ثدييها المكشوفين وانزلقت تحت بطنها، فتوقف القطار.

استدار محمد صلاح كالجحش عندما يتعرف على بيته - وأنا خلفه - ودخلنا من باب أشارت عليه من الفاترينة، وشعر الطلاب بالخوف وهتف أحدهم: «رايحين فين؟».

قال صلاح: "إنت مش سامعها بتقول لي يا حبيبي؟؟" «دي عارفاني»، واندفعنا للداخل.

تفحصتنا بائعة الهوى بحقائبنا، ونطقت بكلمات، ولم نفهم، وكان الدور علينا، وألهم الله صلاح ونطق بعبارة يونانية لا نحفظ غيرها: «إيشي دوليا؟» (هل هناك عمل؟) فقالت: «نيه.. نيه». (أي: نعم.. نعم)، للمرة الثانية لم نفهم، واستكمل صلاح قائلاً: «أيشي أوفر تايم؟» (هل هناك وقت عمل إضافي)، فصاحت ساخطة وبدأت تداري عريها وتسب وتلعن ،وخرجنا هاربين.

******

علي نصار ينظم رحلة علمية سنوياً، يخاطب جامعة يونانية، ويطلب زيارتها مع الطلاب في الأجازة الصيفية، و يحصل على موافقتها؛ لتفتح أبواب تأشيرة السفارة، وكان الرجل واضحاً من أول لحظة، الفرد ألفان من الجنيهات، غير تذاكر السفر، وأسعارها سيحددها الزملاء، عقب استيفاء الأوراق، وجواز السفر جماعي، ومن حقك الحصول على صورة منه في أثينا، والإقامة بالفندق ثلاثة أيام بدون أكل، بعدها إنت وشطارتك.

كان يقف بداخل بذلة بنّية يعاقب عليها القانون نسيجها يلمع كالزجاج، صعيدياً «شنف»، يربط على جمجمته السوداء بلون التراب

نظارة من البلاستيك الأصفر الرخيص، ومن عنقه النحيل تسقط كرافتة مضغها كلب، ولا يتحدث كثيراً ولا يجادل، وتلك رحلته الخامسة، التي تتكرر سنوياً على التوالي، وفي شركة الدكتور اثنان من الطلبة المعاونين بأسيوط لجمع الأموال والصور وتخليص الأوراق واثنان مثلهما في أثينا لنفس الغرض.

تخصّص د.نصار تطوير محاصيل الزراعة، وكان يتعامل معنا كالنباتات، يزرعها و يحصدها، وهكذا بمجرد دخولنا للجامعة، حصل من كل واحد على ألفين من الجنيهات، وألف أخرى زائدة على قيمة الطيران، وكان يربح في رحلة لا يستغرق الإعداد لها أكثر من شهر واحد ربع مليون جنيه، وهو لا يعرف كيف يسكن داخل القميص والبنطلون.

في فندق كوزمو القريب من ميدان سي دغما، كان كل شيء مرتباً وبدأ العد، ووصلنا بمجرد دخولنا الفندق إلى نهاية اليوم الأول من الإقامة، وتسلّم كل واحد منا نسخة من جواز السفر الجماعي، وقضى نصار ساعتين في الفندق، تحاسب خلالهما مع الشابين المصريين المكلفين بتخليص الأوراق والفندق في أثينا، وطلبوا جميعاً بيرة، وصعدنا لغرفنا، واختفى نصار.

فتحت النافذة، كان الليل ساكناً، وخفّضت الضوء، ووقفت أستنشق الهواء، في النافذة المقابلة، يرسم الضوء البعيد جسدين، راحا يمارسان الحب، على حواف الصيف الرطيب، وهما لا يعرفان أن هناك عينين من إفريقيا الحارة ترقب من الظلام.

******

انقضت مهلة الأيام الثلاثة، و نحن ندور حول أنفسنا، وبالبحث عثر أحدنا على فندق شعبي رخيص.

كان أمامنا ثلاثة أيام أخرى وبعدها نجوع.

بعد العودة من الشوارع بحثاً عن عمل أو سكن، لم يكن متاحاً سوى قاعة بهو الفندق، نسترخي على مقاعدها الجلدية الناعمة.

على مقاعد الاستراحة في الاستقبال ثلاث فتيات، في الثلاثينيات تقريباً، يرتدين الميكروجيب القطنية الخفيفة، وتي شيرتات تكشف البطن، والحريمنعهن من ارتداء حمالات الصدر، اثنتان منهن بدون ملابس داخلية، ويبدو ذلك واضحاً لكل من ينظر بين سيقانهن.

صلاح كان معي، مستمتعاً بأن تناغش إحداهن الأخرى، وتنكشف الجيب القصيرة، أو يقفز نهد.

خرجت لشراء ساندويتشات، رجعت ولم أجده، وعند غرفتنا، فتح الباب وقال هامساً: «هات الساندويتشات، وانتظر بالخارج وسأحكي لك».

أسمنهن غمزت بعينيها وابتسمت، فاقترب منها، وتحدث قليلاً من الإنجليزية، ولم تفهم، أشار لغرفته ليريَها شيئاً فوافقت، أغلق الغرفة، وحاول احتضانها وتقبيلها فقاومته، وجرت واقفة عند الباب، أمسك رأسه، معتذراً، وكأنه داخ وسيسقط، فتراجعت عن الخروج، خلع القميص، وما تحته، ليقف عارياً، وقبل أن تشك في نياته، استدار ودخل في جلباب للنوم، وجلس على حافة السرير واضعاً رأسه بين يديه، وخرجت.

بعد دقائق أدارت مقبض الباب هامسة لتطمئن على صحته ،واكتفى بالجلوس على حافة السرير، فاقتربت؛، بزينتها وعطورها لتداعب رأسه وعرفت مكامن الصداع.

عندما خرجنا للبهو كانت مع صديقاتها، تغمز من بعيد، وصديقتها ذهبت معي للغرفة بخدود حمراء.

مواس طالب كلية الزراعة من قرى سوهاج استضافته الثالثة في غرفتها، فقفز، ولما منعته هجم كما الأفلام، فنال رفسة، وحاول السيطرة عليها بتكتيفها وتكميمها. دقائق من الصراخ، وكانت على عينه لكمة وفوق رقبته نسخة من الأظافر.

أثناء الهياج سرقنا بقايا زجاجة مارتيني، تركها بعض الأمريكان، كانت عيوننا عليها، وغافلنا الجميع، وأدخلناها حجرتنا، وانفض الشجار، وظل النادل يفتش في غضب.

******

إقامتنا تنتهي بعد أسبوع، وبعد أيام من دوران بلا معنى في كل الشوارع بحثاً عن مسكن أو عمل، ونحن لا نعرف كلمة يونانية واحدة، رجعنا خائبين.

في المساء دخل الفندق ثلاثة شبان مصريين، يتحدثون في ثقة، وخرجت لأعبر البهو بالمصادفة مع صلاح، فاستوقفني أحدهم صائحاً: «مش ممكن؟».

ووقفت أمامه حائراً: «ألا تتذكرني؟ أنا عادل فهيم كنت زميلي في المدرسة الإعدادية، ما أخبار الرياضة؟».

عادل القبطي القصير، والنحيف للغاية، لم يمنحني الفرصة لأتذكر.

«إنت قاعد ليه هنا؟».

قبل هبوط المساء كنت ومحمد صلاح من سكان "كاليثيا"، بعد سداد أجرة شهر، وفي جيبنا رقم هاتف عادل فريد وبعض الدراخمات، دسها في جيبي وهو يقول: «سوف تسددها بمجرد أن تعمل، وإذا أفلست لا تقلق اتصل وسأحضر في الحال».

******

ليس في الدنيا أجمل من شوارع «كاليثيا»، ولا السينما الجميلة على ناصية شارعها التجاري، ولا مشاهدة فيلم «عشيق الليدي تشاترلي» للورانس بعيداً عن الرقابة المصرية.

البستاني الخشن صحا على زوجة صاحب القصر، ترقص عارية تحت المطر والبرد، بعد أن تأوهت وذاقت وجع الحب، و يحملها لكوخه الخشبي في وسط الغابة ويوسّدها ويُدفئها و يجففها، ويرسم ثدييها وبطنها وهنَها بزهور برية صغيرة، ويكلل بالورد تاجاً على جبهتها، ويعود ليستنشق عبيرها وردة وردة؛ لتشهق وتنفجر تحته كبركان.

شارعنا شديد الهدوء، ألف متر، وعلى الجانبين أشجار برتقال، وعند كل شجرة، قفص، بداخله عصفور، يغرد لحناً مختلفاً عن بقية العصافير، وكل عمارة تتفنن في العناية بالأشجار الواقعة في مواجهتها.

في العطلات تنفتح البيوت كالشوارع، اليونانيون يسكنون الشرفات، وفي الشقة المائة متر، نصيب الشرفة ثمانون متراً، مزروعة بالنباتات النادرة والزهور والمقاعد البامبو والمساند المريحة، ومن داخل تلك الخميلة، يشاهدون التليفزيون ويتناولون الطعام ويمارسون الحب والرقص والغناء.

في الصباح كان المشهد ساحراً، بألوان البرتقال الزاهية، والأشجار الخضراء، وصوت العصافير، ورموش عيون الفتيات تراقبنا كجيران.

دقّ جرس الباب، خرجت ولم يكن هناك أحد، كانت أكياسنا للقمامة، عائدة ومغلقة بشكل محكم وعليها رسالة، اتصلنا بعادل، فقال لا داعي لأن أحضر، الحكاية ممنوع أن تضع كناسة مفتوحة أمام الباب، الأمر الثاني جامع القمامة يمر ثلاثة أيام في الأسبوع، هي الأيام المسموح فيها بإخراج المخلفات، بحيث لا يمضي سوى ساعة و يحملها ويمضي؛ وحتى لا تؤثر رائحتها على السلم، أخيراً هناك صندوق أمام باب العمارة للقمامة، والسكان يتناوبون على تنظيفه، كل شقة أسبوع، أعتقد أن هذا ملخص ما كتبه لكم أحد الجيران، على أكياس كناستكم.

-٣-

استدعت السلطات رمضان؛ لاستكمال أوراق اللجوء السياسي.

وكان ذلك متوقعاً.

سأله المحقق: لماذا لا تغير اسمك؟

شعر بالارتباك، واعتقد أن هناك خطأً ربما يؤدي إلى حبسه، كان منذ يومين مع المحامي، واستفهم منه عن كل الأسئلة المتوقعة.

سأل رمضان بعد أن ابتلع ريقه عن الأسماء المعروضة، وقال إنه لم يمانع، وقال المحقق: «يني باولو باسكليدس يورغو خريستو»، واقترح أن يكون الاسم الأخير،

استفهم رمضان؛ ليكسب مزيداً من الوقت عن معنى خريستو، فقالوا في إكبار إنه اسم السيد المسيح.

أشار بعلامة التثليث على صدره كما علموه.

وقال: اسم عظيم لكن أخاف أن أحمله، فأنا أحب النساء وأدخن.

شرح المترجم ما يقول وعندها ابتسم المحقق.

تشجع رمضان وسأل: وما عيب رمضان؟

قال المحقق: لا يوجد عيب، لكن ما معناه؟

سأل المحقق المترجم طويلاً عن معنى رمضان بالعربية، فقال إن معناها شهر التقرب من السماء بالصيام والصلاة، واعتقد المحقق أنها في العربية تعني الصيام الكبير، وختم على خانة الاسم بالموافقة.

بعدها سأله عن موقف أهله في مصر، وكان يحفظ الإجابة من المحامي، مر بإصبعه على عنقه.

فهم المحقق وقال: «تلقيت تهديدات؟».

قال رمضان: «نعم».

قال المحقق: «تحتاج حراسة؟».

قال رمضان: «لا».

أخيراً: «هل لديك هناك زوجة أو أولاد؟».

وكرر رمضان: «لا».

في المساء عاد للمقهى منتصراً بقصة الضحك على المحقق والمحافظة على إسلامه.

لكن أحداً لم يعد يناديه باسم رمضان، وأصبح خريستو.

خريستو لبانة، يبصقونها في وجهه بمناسبة وبغير مناسبة، أحدهم يلعب الدومينو، وقبل أن يكشف الورقة الحاسمة يصيح صارخاً: «يا ابن الشرموطة يا خريستو.. دومنا هاهاهاااي»، وآخر يدخل من الباب سائلاً: «حد شاف إستو؟»، بل وتطور الاسم؛ لينغزه أحدهم: «ريحة خرا يا جماعة».. أو يعانق واحدة من النسوان معتذراً: هاهاا لا مؤاخذة يا ستو.. أنا قصدي «خري ستو».

- ٤ -

من ضغط البول، أخرجت أسفل بطني مغمضاً، محتقناً أمام المبولة، في الضوء الأحمر الخافت، وسرت رعشة، فتحت عيني؛ لأفرغ القطرات الأخيرة، كان عضوي منتفخاً، وجار يتظاهر بفك البنطال، عيناه تحملقان فيما يجري، وقد التوت رقبته من المبولة المجاورة.

سينما السكس تعمل ٢٤ ساعة، تتخللها دقائق لتغيير الأشرطة، سألت: ومتى ينتهي الفيلم و نخرج؟ قال رمضان: «دااا ما بيخلصش.. العرض مستمر ولو نفسك تبات خليك هنا... هاهاااهاا!».

دخلنا الصالة بدون عامل "بلاسير"، القاعة فارغة تقريباً، ولا يزيد المتفرجون على عشرة، وعلى الجوانب أشباح، أحدهم لكزني عند عبوري، وأنا داخل بمنطقة حساسة، وكنت أعمى لم أعتد على الضوء بعد، وقهقه رمضان وهو يسحبني.

كانوا على الشاشة قد عرفوا بحضوري و يخلعون ملابسهم، ومشاهد الإيلاج والضرب على المؤخرة والنوم مع ثلاث نساء في وقت واحد والاغتصاب لا تتوقف.

اشتعل النور للاستراحة دقائق، ولم يكن هناك أحد سوانا، أنا ورمضان نتفرج على الأفلام والباقون لا تعنيهم الشاشة.

تسلل أحدهم، وبمنتهى الذوق والأدب مدّ يده، وطوى إصبع السبّابة، وأطلقه في خفة؛ ليصطدم بقضيبي المحتدم، انتبهت، ولكزت رمضان فنهره صائحاً، فابتعد خجلاً، وقهقه رمضان.

بدأت مضاجعة الحيوانات، لحس الكلاب، وامرأة مع الحمار، واللعب مع القرود، والتهيج من متابعة الأسد ينزو على اللبؤة.

وهتف رمضان: «يا أولاد الوسخة، هاتروحوا جهنم حدف».

انتفخت المثانة واحتقنت من جديد، ذهبت للحمام، حريصاً على تفادي أي اصطدام، مع ثلاثة رجال عيونهم مكحَلة يبتسمون وعلى شفاههم روج، ووقفت مفتوح العينين؛ لأتبول.

تذكرت يوم القيامة، وأن ما يحدث ربما يكون إحدى علامات الساعة، وأن كل هؤلاء سيدخلون النار، وأنا معهم؛ لأنني قدمت دعماً لهم بقطع تذكرة بثلاثمائة دراخمة، شعرت بصداع، ورجعت للمقعد وطلبت من رمضان أن نخرج.

******

أنعشنا نسيم بارد، خارج سينما روائح البول والحيوانات المنوية.

وقال رمضان: «تعال معي».

كنا على ناصية ميدان "سي دغما"، وانزلقنا إلى شارع "بيريوس"، الغني ببيوت الدعارة.

أمام إحدى ماكينات الحلوى والمشروبات توقف رمضان، وهو يتلفت في حذر وقال: «تشرب إيه»، وقلت من حلقي الجاف: «بيبسي».

خلا الشارع، ومدّ يده ودسّ «مفك» تحت الماكينة، وسرى صوت هائل، وتدفقت الدراخمات، وسقط بعضها على الأرض.

الماكينة تبيع مشروبات وأنواعاً من البسكويت للعابرين سريعاً في الشارع بـ١٠ دراخمات أو خمس، لكنها إن ابتلعت مبلغاً غير مفهوم أو فوق طاقتها تطرده في الحال.

رمضان حضر بالأمس ليلاً، وأغلق فتحة طرد الدراخمات بلبانة، وألصقها بإحكام، وهكذا وبمجرد طرد أول عملة؛ ظلت الدراخمات تتراكم بداخلها، وكل مبلغ جديد يضاف للدراخمات المطلوب طردها،

والعابـرون في الطريـق للعمل يطلبـون الحصول على مشـروب عاجل أو قطعة بسـكويت، ويدسـون العملة المعدنية، وعندما تلتهمها الماكينة ولا تنطـق، يحاولون لعدة ثوانٍ الضرب على الماكينة لإيقاظها، وخوفاً من التعطل يرحلون غاضبين.

رمضان نصب الفخ، وعندما مدّ يده الخبيرة لسـحب اللبانة، وضع يده في كل جيوب العمال، وتدفقت كل الأموال المتأخرة.

وقفـت أتتبعـه خائفاً، وهو يجمع الدراخمات مـن على أرض الرصيف، لكنـه قال: أنا أفعل هذا مرة، ولا أعود للماكينة مرة أخرى قبل شـهرين على الأقل.

صاحب الماكينة، يوناني يسدد الضرائب، وعندما تنخفض مبيعاتها، يسب ويلعن.

من المسروقات تناولت عند كرياكوس ساندويتشاً من اللحم المختلط بالبصل داخل رغيف من الرقائق، بميدان "أمونيا" مع زجاجة بيرة.

-٥-

في ميـدان "أمونيا" المترامي الأرجاء، تصب أغلب مقابلات الأتوبيسـات والترام ومترو الأنفاق في المحطة الرئيسية.

علـى جانب من الميـدان مقهى كبير، نسـخة من مقهـى الحرية بباب اللـوق بوسـط القاهـرة، بأعمدتـه العاليـة المزدحمـة بالمرايـا، والطاولات الرخامية والكراسي الخشبية.

يوماً ما تسـللت داخله، وجلست مسـتمتعاً، يلعبون الشطرنج،كما في القاهرة ، وكنت لاعباً مصنَفاً، استأذنت على إحدى الطاولات، لأتفرج.

جلـس إلى جوارنـا كهـل إيراني نحيـف في العقد الخامس بشـارب، يرتـدي جاكيت كاروهات على قميص، ويبدو معتزاً، وبدأ يلقي بعض الملاحظات على اللعب.

قطعـت علـى المقهـى طـوال النهـار، في يـوم بـلا عمـل، وأكلـت ساندويتشات.

في المغـرب حضر شـيخ مسـن، وخلـع البالطـو ووضعه على المشـجب بجوارنا، وتلفت الجميع، عند وصوله.

على الطاولة بدأ يلعب وكسب لاعبين، وانصرف أحدهم غاضباً.

عرضـت أن ألاعبـه ووافق، وهزمـني، طلبت تغيير اللـون؛ لنلعب الدور الثاني، فقال: لا.. أنا ألعب بفلوس، الدور بمئة دراخمة.

همس الإيراني ذو الشارب في أذني: لا تلعب.

لكـنني وافقت، وطلبت قهوة على الريحة.

كنت مسترخياً، وعندما قال ذلك استدعيت كل قدرات التحدي والتركيز.

قال الإيراني بالعربية: هذا الحقير، كان في المركز الثاني على أبطال اليونان في الشطرنج، وهو الآن يصطاد الزبائن.

انتبه الشيخ وأشار على الإيراني بما معناه ممنوع الكلام والتحليل، فقد بدأ الدور.

انتهينا في الثانية عشرة مساء، وكنت قد هزمته دورين، وسط فرحة الإيراني العارمة.

انسحب الشيخ منكسراً، ومدّ يده المرتعشة بالمئة دراخمة الثانية.

قال: «أنت كنت تخدعني وتتظاهر بأنك ضعيف».

ووضع المعطف على جسمه، وضبط القبعة وانصرف.

-٦-

سألني الإيراني: أين تذهب؟ قلت: لا أعرف.

قال: وماذا تعمل؟ قلت: طالب، وأريد أن أعمل بمصنع، قال: ولماذا لا تعمل معي؟

الأستاذ صدوقي، أحد قيادات حزب «تودة» الشيوعي، ونائب رئيس الإذاعة الإيرانية، كان هارباً من ثورة الخوميني، وطاف بألمانيا وتركيا وإنجلترا والكويت، وافتتح مصنعاً في اليونان.

حملتنا سيارة آر بحجم علبة الكبريت، توقفنا في أسبرطة،لم يبق من آثار وعضلات مصارعيها حجر، باستثناء قمة تطل على هاوية سحيقة، كانوا يفحصون الأطفال عقب الولادة، وإذا كان بالمولود أي عيب يلقونه من حالق الجبل.

صعدنا "تريبولي" عند أعلى قمم الجبال، على ارتفاع ٤ آلاف متر فوق سطح البحر، والخنفساء يقودها صدوقي بمهارة؛ لتدور صاعدة حول الجبل، وتسبق كل السيارات على الطريق السريع، وكانت الثلوج تخفي تحتها القرية عندما دخلناها ليلاً.

صدوقي يعيش بمفرده، في فيلا من دور واحد، أعطاني بطانية؛ لأنام على مرتبة في إحدى الغرف، وأشعل النار في بقايا خشب، وكان على الأرض رواية كافكا بالألمانية «المحاكمة».

سألته عن العمل والأجر، فنظر نحوي باستغراب.

عن إيمانه بالاشتراكية، قال إنه سافر للاتحاد السوفيتي، بمجرد هروبه من إيران، لكنهم تخوفوا منه، ولهم الحق في ذلك.

في الصباح خرجت لحديقة المنزل ، ووسط البرد كانت هناك طائرة واقفة.

على الإفطار قلت: شيوعي ويمتلك طائرة خاصة؟

كنت أمزح، لكنه انفجر...

لاااا، أنا أحب الطائرات، ولامتلاك واحدة لم أستغل العمال، وأصنعها بنفسي»،»

انتبهت إلى أن الصالة مزدحمة بأعداد لمجلات أندية الطيران.

«صنعت الطائرة قطعة قطعة، «بعرقي»، ومن أجل ذلك درست الهندسة في ألمانيا.»

كان يتحدث بعض العربية الفصحى، قضى خمس سنوات في الكويت، وردد أبياتاً للشابي: إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر

قال إن السيارة الحقيرة، التي كان يقودها، سبقت كل السيارات، لأنه أدخل تعديلات ؛ لتصبح سرعتها ٢٥٠ كيلومتراً في الساعة، وقال إن بإمكانه زيادة سرعتها إلى ٥٠٠ كيلومتر، لولا أن هيكل السيارة الضعيف لن يتحمل.

قضيت أسبوعاً بلا عمل، نخرج و نحتسي النبيذ، ونرتاد المجتمعات، ونلعب الشطرنج، ونغازل الفتيات.

صدوقي يصب اللعن على الأفغان: « يحاربون الروس، ويتوضأون؛ بينما سروالهم منتفخ من البول والعفن.»

طلبت أن نذهب للمصنع؛ لنعمل، وكان ينظر نحوي باستغراب. كبر جوازي حقير.

المصنع، على أطراف الجبل، كان الجو بارداً لدرجة التجمد، وشرح صدوقي العمل، قوارير عملاقة من مادة البولي إيثلين، يجري تقطيرها؛

لتُصب في قوالب تحفاً باهظة الثمن.

انفجرت إحدى دوائر الكهرباء، وشرح صدوقي مرة أخرى، أنه ليس برجوازياً حقيراً، وعندما قرر امتلاك المصنع، صنع كل الأجهزة والتوصيلات اليدوية بيديه.

بعد يومين رجعنا للمصنع؛ لنبدأ العمل، وكان المصنع مفتوحاً في الشارع، نسي صدوقي إغلاق إحدى القوارير الضخمة، وهو يشرح نوعية مادة البولي إيثلين الخام الشفافة، وخرجنا وأغلق المصنع بإحكام، وظلت المادة تتطاير وتتسرب، ولا تجد منفذاً للخروج، وفي النهاية أطاحت بالجدار، ومزقت ضلعاً من المصنع، وجلس صدوقي مهموماً، فقد كان ذلك معناه أن يبدأ في إعادة بناء ما تحطم من جديد.

حملت حقيبتي، ورجعت أثينا على حافة الإفلاس.

-٧-

خالتي تولا عقدت اجتماعاً عاجلاً في الحديقة، شرحت الموقف المعقد، لدينا شجرة خوخ وشجرة ليمون، والأزهار والأشجار الصغيرة، كل أسبوع من واجبنا قص الحشائش، وجمع مخلفات أوراق الشجر، وكل يوم نروي الزرع.

سألت عن أسمائنا، وعن عملنا، وفركت يديها سعيدة، عندما عرفت أننا طلبة جامعة، سألت عن أماكن عملنا، واستغرقت في الضحك، على مصطفى، وهو يشرح مكونات سوق الخضار والفاكهة، ومحمد صلاح الخارج من صناديق القمامة في مصنع الورق.

تولا تسكن بالدور الثاني، في غرفتين، و نحن نقيم في أربع غرف بالدور الأرضي، والفيلا تمتلكها ابنتها، وتأكل وتعيش من الإيجار.

عمرها سبعون عاماً، وقصيرة وماكرة كأم كلثوم.

مصطفى صار غرامها من أول يوم، يعود محمّلاً بجوال من الخضراوات من الشادر، وقبل أن يدخل من بابنا يصعد عند خالته تولا، ويفرش أنواع الخضراوات والفاكهة أمامها؛ لتنتقي ما تريد، ويتحدث معها بلغة عربية إنجليزية يونانية، ليحكي ما جرى هناك من مشكلات وخناقات، وتفهم وتضحك من أعماقها.

مصطفى في الشادر، عامل على منفذ لبيع الفاكهة بالجملة، صار وجهاً معروفاً، عند عودته، يمر على بقية المنافذ؛ ليأخذ ثمرتين من كل نوع، ويضعهما في الجوال؛ ليصل لبيتنا محمّلاً.

******

جمعتنا تولا يوم الأحد، وعيوننا شاردة، قالت: «لماذا ليس لديكم صاحبات»،

ضحكنا وقال عاطف: «هذا حرام».

نظرت في شك نحونا وسألت: «ولا حتى قبلات وأحضان؟».

فوق حديقتنا تطل من النافذة غزالة يونانية، لا نحلم بأن نراها في أحلامنا،

أشارت عليها تولا أن تنزل، وقالت إنها سترتدي ملابسها، وأنزلت بالسلة «تاكي»؛ ليسبقها، مخلوق ثقيل الحركة، ما بين الفأر والأرنب، ناصع الألوان، ذهبي على أبيض، ووضعناه في منتصف الحديقة على الحشائش، كانت سولا - ١٥ عاما - ترتدي ملابسها قطعة قطعة، وتخرج في كل مرحلة؛ لتصيح: «تاااااكي» للاطمئنان عليه وحتى يشعر بأنها إلى جواره.

وفي النهاية داهمت حديقتنا، بشورت قصير جداً، وتي شيرت لا يغطي سوى صدرها، ورقدت على الأرض؛ لتلاعب «تاكي» وبطنها الفاتن وظهرها يلمعان في الشمس.

كنا نسمع صوت سولا تناغي «تاكي» طوال الوقت بنعومة بالغة من شرفتها، ونظن أنه أحد عشاقها؛ لأنها تعاتبه، وتغضب من تصرفاته.

بعد انصراف البنت، عبرت بنت عم إبراهيم، بنت سائس الخيل، وكانت على الطريقة المصرية تترقص من الخلف، ورفعت خالتي تولا حواجبها معجبة بمؤخرتها ، وسألت: هل يمكن لأحدكم أن يتزوج يونانية؟

أجاب الشيخ عيسى، وكان صامتاً طوال الوقت: ممكن ولكننا نشترط أن تكون عذراء.

استفهمت خالتي تولا طويلاً عن معنى كلمة عذراء، ولما عرفت شردت بعيداً.

حاولت مشاكستها قائلاً: «هل عندك جميلة وعذراء من أجلي؟» فقالت ضاحكة: "لاااا ابتعد".

وتجمعنا حولها، و نحن نصر على أن تجيب.

قالت: «موجودة، عذراء من الأمام، وخربانة من الخلف».

سولا اعتادت أن تزورنا بحضور خالتي تولا، التي تغمز لنا ضاحكة، بأن جسمها جميل، كانت ترتدي بنطلوناً أبيض شفافاً من القطن، وبطنها العاري تتوسطه سرة تبارك الخلاق ونرى مفاتن صدرها بوضوح.

همس مصطفى لخالتي تولا، بأن سولا لا ترتدي شيئاً تحت البنطلون، ترجمت خالتي تولا السؤال لها، فانتفض مصطفى مذعوراً.

وبعد مناقشات بينهن وهمس، التفتت سولا نحونا ضاحكة؛ لتقول: «نعم لا أرتدي لباس تحتاني».

نظرنا لأنفسنا، لكنها سألت: «ما فائدة هذه القطعة، إنها للضرورة، في أوقات محددة، وباستثناء ذلك أخلعها منعاً للتسلخ».

قلت ضاحكاً: «أنتن لا ترتدين سوى حبال رفيعة وصغيرة جداً».

قالت: وأنتم في مصر؟

قلت: واووو.

وبدأت أشرح لها أركان ومعالم لباسنا العظيم «أبودكة»، الذي بإمكانه أن يغلق الشارع، وأسرار حباله العميقة وخباياه وفوائده الصحية وقدراته على العوم بمفرده، وخالتي تولا مغرقة في الضحك بينما سولا لا تصدق أن هذا الكلام صحيح.

******

في دكان لبيع الخضار والفاكهة، جرّبت أن أطير على موتوسيكل، لتوصيل الطلبات.

ويوم وصولي تشاجر صاحب المحل مع عامل يوناني وطرده.

لم يكن دكاناً اعتيادياً، كان يبيع أفخر أنواع الفاكهة، بأسعار مرتفعة.

وكنت معجباً بمطعم، قالوا إنه أفخر مطاعم أثينا، أزوره في الصباح؛ لأفرغ بداخله الفاكهة والخضراوات وقت تنظيف العمال للمكان، كان في الطابق السابع، وفي منتصف المطعم نخلة عملاقة، تزينت بباقات من البصل والثوم.

وحملتني العناوين لبناية أخرى، دخلتها وطلبت رقم الطابق بالأسانسير، وفوجئت بأن المصعد الخشبي الجميل، يفتح على قوقعة وردية، خرجت منها؛ لأجد شقتين، إحداهما دققت عليها الجرس، وعلى الأخرى كان يقف حارس يوناني بملابسه التقليدية: التنورة المربعات القصيرة فوق الركبة والجوارب البيضاء والحذاء السفينة والكاب القرمزي والسيف.

أدخلت الخضار والفاكهة للمطبخ، وسألت صاحبة البيت هامساً: منْ يسكن هناك؟

مطت شفتيها قائلة: كارامانليس.

رئيس الجمهورية.

رجعت للدكان، ومن بعيد لمحت تجمهراً، وأشارت يد أعرفها أن ابتعد.

كان البوليس السياحي يبحث عني، بعد أن أبلغ اليوناني.

ابتعدت كثيراً، وحضرت بعد يومين وتقاضيت الحساب.

في مصنع الزبادي كان الوضع مختلفاً، نساء فوق الثلاثين، يتحرشن بي، كان الأجر ضعيفاً، والعمل مناسبا لبنات حواء، ورائحة المصنع لا تُطاق، وحكيت لسولا، ولم أستمر طويلاً.

-٨-

مـن الأتوبيـس شـاهدت مظاهرة حاشـدة، عشـرات الآلاف مـن الطلبة يتظاهرون.

كنـت قد نجحـت في الحصـول على عمـل بمصنع بلاسـتيك، ومن الزجاج تتبعت اللافتات، المظاهرة للتضامن مع عشـرات الطلاب المحتجزين بسجون الأمن في جامعة أسيوط.

(كابـا كابـا ابسـيلون)، الشـيوعيون أصواتهم عاليـة، ويتقدمون الصفوف، لكن بلا شعبية.

اندفـع الأتوبيس، محلقاً في الشـوارع، بجـدران مصنوعة مـن الزجاج، كان خالياً تقريباً من الركاب، إلا من عجوز وصديقتها تتسامران، وصعد للأتوبيس فتاتان، بميكـرو جيب قصير لدرجة التعري، وقمصان مربوطة على البطن ومفتوحة الصدر، ومالت واحدة فتدفق نهداها، وكادت تسقط وتأوهـت الأخرى، وكأنها تغنج على الفراش، ولما أنقذتها قبلتها من فمها، فأشـارت إحـدى العجوزيـن بعلامـة التثليث والتفتـت لصديقتهـا والتوت شفتاها.

لمحـت إحـدى الفتيـات مـا حـدث، وهمسـت لصاحبتهـا، واقتربتـا من العجوزين،وأسمعتهمـا وصلة، لا تحتـاج ترجمة، وفهمت أنهمـا يعايرانها هي وصديقتها بأن سـاكن فخذيها خشب، وثديها يبصق صراصير، وأنها تذهب للقسـيس الذي يمـارس العـادة السـرية، ويعلمهمـا التثليث؛ لأنه عاجز، وهو كل ما تبقى لهما.

لم يتدخـل السـائق، ومن شـدة الهجـوم دق زر المحطـة القادمـة، ونزل العجوزان من الأتوبيس.

مجدي، يعمل في مصنع نجارة، على منشار خشب آلي، سعيدا كان يدفع الخشـبة؛ لتنشـطر داخـل الآلة، وعندمـا نظر خلفـه؛ ليداعب إحدى

العاملات، تطايرت أصابعه الثلاثة، وعاش بيننا ثلاثة أشهر، صاحب المصنع وافق على تعويضه بسخاء، مقابل عدم اللجوء للشرطة والقانون، وعاد إلى مصر.

******

في مصنع البلاستيك، وقفت أمام الماكينة الألمانية، مضى وقت ، منذ حضرت إلى هنا، كنت وحيداً في نوبة المساء، مع اثنين من الباكستانيين، كنت تقريباً رئيس الوردية.

نيكو حضر بعد ساعتين ضاحكاً؛ ليسأل: كيف الحال؟

وقلت: كل شيء تمام.

الماكينة تعمل بشكل أوتوماتيكي لإنتاج أشكال من البلاستيك، وكنت أديرها بنجاح، بحيث تعمل بلا توقف، وبلا تدخل يدوي.

سعيداً تناول المقشة، وبدأ ينظف من حولي، قلت له هذا لا يصح هذا عملي.

قال مبتسماً: لا.. لا.. اتركه لي، فأنا أريد تنشيط نفسي.

الخارج من الحرب العالمية الثانية بدرجة عريف، أحد شركاء ثلاثة يمتلكون المصنع، لديه ثلاث سيارات فاخرة، لكنه يحضر المصنع بسيارة ممزقة، وفي إحدى الورديات صدمتها ناقلة ضخمة، وتهشم الباب، لم يرحل مبكراً، وظل يعمل، وقبل أن ينبلج الصباح استدعاني؛ ليسألني: "ما رأيك؟" كان قد صنع باباً جديداً.

دعاني نيكو لزيارة مزرعته، كان في العقد الخامس، وبين الزيتون وأشجار التين والعنب، قضيت يوماً ممتعاً مع طفلتيه الصغيرتين وزوجته،

كان عمر الطفلتين لا يزيد على عشر سنوات، تزوج متأخراً، وكان قلقاً على مستقبل البنتين، ويعمل كثيراً.

******

في منتصف المساء، أستقل المترو لأصل للأتوبيس للوصول للمصنع، معي حسان، وقبل وصولنا للمصنع، أمامنا وقت طويل، قلت لحسان : سأتفرج على بيوت الدعارة فقال: "إنت متعرفشي ربنا".

دخلت أحد البيوت، خرجت العجوز، قالت البنت صغيرة جميلة، تسمح بتقبيل ثدييها ، ولا شيء آخر، قلت موافق، خرجت الفتاة عارية تماماً، وشديدة الجمال، احتضنتها وقبلتها، وقلت إنني ذاهب للعمل، وسأحضر معي نقوداً كثيرة، وتحسست ظهرها وجمال مؤخرتها، وهي تضحك مبتسمة، وخرجت.

حسان على الباب كالمسمار، قال إنه لن يذهب قبل أن يمسك ثدييها، ويضع يده على مؤخرتها كما فعلت.

قلت إنهم سيستدعون البوليس، انتزعته من مكانه بالقوة ونزلنا، وصار يغيب وينزل بمفرده كثيراً.

******

في بدايات العمل بالمصنع، توقعت أن يسب صاحب العمل العمال، لكن ما يحدث العكس، في نوبة الصباح ثلاثة عمال يونانيين، يتشاجرون مع أصحاب المصنع ويلعنون، وأصحاب المصنع صامتون إلى أن تنتهي المشكلة.

المظاهرات العمالية تخرج حاشدة، تطالب بزيادة المرتبات، تعلن الحكومة الموافقة على بعض مطالب العمال، يستدعيني ميتسو؛ ليقول بدون غضب أو فرح، الحكومة رفعت الرواتب بنسبة محددة، وعلى هذا

الأساس؛ فإن مرتبي، ويستخرج الآلة الحاسبة، و يحسب المرتب أمامي بعد الزيادة، ويصافحني ويشكرني.

ميتسو الشريك الثاني في المصنع كان مثقفاً، وكنت أعشقه، بملامحه القمحية الجميلة، اشتراكياً كان، وأكثر الثلاثة معرفة بتقنيات ماكينات البلاستيك.

مهذب إلى أقصى درجة، وينصحني بأن أشرب الحليب، وأتغذى جيداً.

اقتحمني أندرياس السمين شريكهم الثالث، وطلب بدلاً من أن أقف على الماكينة صامتاً، أن أصفَ أجولة الإنتاج وأساعده، وأنقذني ميتسو متدخلاً بشكل حاسم قائلاً: «اتركه يعمل»، وحمل معه الأجولة.

أندرياس كان هارباً من جنوب إفريقيا بأمواله خوفاً على حياته، قرصان يميني ومسيحي متطرف، يرسم الصليب بمناسبة وبدون مناسبة، لكنه يحترم ميتسو لأقصى درجة، و يخاف من نيكو.

تعوَدت أن أجري في الشارع؛ لأصل للمصنع في الموعد، ولا أتأخر دقيقة، خصوصاً بعد أن أصبحت في وردية الليل، وكنت أصل في السابعة ليلاً، وأغلبهم سيغادرون لبيوتهم، باستثناء واحد من المفترض أن يمر لمدة ساعة ليلاً، ويصافحونني جميعاً مع التمنيات، وأغادر في السابعة صباحاً.

أمام تلك الماكينة العملاقة لا شيء تفعله حتى الصباح، أكياس البلاستيك الخام، تلقمها في الماكينة، وتخرج من القالب، أشكالاً عديدة، بعضها لعب أطفال وقطع غيار سيارات وأمشاط فاخرة.

معي قلم من النحاس الأصفر، يعالج الماكينة؛ إذا تصادف وتعطلت؛ لانسداد شوائب البلاستيك، باستثناء ذلك كنت قد عوَدتها أن تعمل يدوياً لمرة واثنتين، وفي الثالثة تنتقل؛ لتعمل أوتوماتيكياً؛ لتصل لأقصى سرعاتها في الإنتاج، و يخرج المنتج أمامي، فأضعه في الجوال بعد قص الزائد، وأضعه في جوال آخر، وعندما ينتهي الجوال أجرّه لجوار الحائط،

وقبل أن أسحبه أضع جوالاً جديداً تحت الماكينة.

في الصباح أبدو فخوراً، بكل هذا الكم من الأجولة المعبأة بالإنتاج، وفي السابعة، يتدفق الجميع على المصنع، لأودعهم سعيداً.

وسط العمل أستخرج طعام العشاء، وأضع العلب المعبأة بالخضراوات واللحوم على سخان الماكينة، وبعد نصف ساعة تكون قد وصلت لمرحلة الغليان، وأتناول الطعام، أحياناً كان ميتسو يحضر، ويصر على أن أحصل على نصف ساعة لتناول الأكل، و يجلس مكاني سعيداً، وأنا أقول لا شيء سيتعطل.

في ورديته كان إذا استمر ساهراً حتى الصباح، يصر على توصيلي حتى محطة مترو الأنفاق؛ لينقذني من البرد والمطر.

مترو الأنفاق القديم المصنوع من الخشب، يندفع وسط العاصمة، وفي ساعات الذروة يتوافد العمال بالآلاف على عرباته، وفي الصباح الباكر لا تسمع سوى صوت بائعة الورد أو بائعة الكعك: «فريسكووو»، أي طازج وأصوات الأقدام اللاهثة للوصول لأماكن العمل.

ممنوع التدخين في المترو، ركب معي جابر، وكنا عائدين في إحدى الأمسيات، وأشعل سيجارة، اقترب شخص وأمسكها ، وألقاها من الشباك.

العربات في آخر المساء شبه فارغة، صعد شاب وفتاة، وبدأ يعزف ويغني، أغنية تقول كلماتها إنه يحب تلك الفتاة، ولا يمتلك غير قلبه، ولا هي، لكنهما سيغنيان و يحبان بعضهما بعضا، كانت البنت صغيرة، وتمر بين المقاعد على استحياء وهي تحمل طبقاً، ولا تمد يدها إلا بصعوبة، استخرجت كل الدراخمات المعدنية الموجودة في جيبي ووضعتها في الطبق.

******

تبادل القبلات في المترو، أحد عناصر الحياة، في مدينة أهلها فقراء، يعشقون الحياة، ولكل وقت في المترو مذاق ، من السادسة صباحاً، وحتى الثامنة زحام وعمال، ومن التاسعة حتى الثانية عشرة جدات وأمهات

وأطفال، ومن الخامسة وحتى الثانية عشرة ليلاً عشاق وعائدون من السهر.

لم يكن هناك محصل للتذاكر، و نخرج من بوابات المترو، بلا مراجعة، فقط بين الحين والآخر يصعد مراقب، يسأل عن التذاكر.

في الأتوبيس كان الأمر مختلفاً، لا يوجد غير السائق، وفي الخلف ماكينة، تمنحها عشرة دراخمات، فتمنحك التذكرة، أحياناً ينسى أحد، ويصعد وينسى قطع التذكرة، لن يحدث شيء، سوى أن عيون الركاب ستحاصره؛ ليشعر بالخجل.

محمد صلاح كان قد قرر أن يغادر ويعود لمصر، وفي نهاية المساء ركبنا الأتوبيس، وكان خالياً، وقعد مع اثنين من المغادرين في المقاعد الأخيرة، وبدأ الثلاثة يغنون: «إحنا المصريين.. وعاوزين عباس... فين أمك يا عباس ؟»، كانوا يسخرون من خوفهم الدائم طوال الثلاثة أشهر الماضية من القبض عليهم وترحيلهم.

عباس مصطلح البوليس السياحي، الذي يقوم بترحيل غير الحاصلين على الإقامة، وكنا نشعر بالرعب عند رؤية سيارات البوليس السياحي الرمادية.

ارتفعت أصوات الجوقة بالأتوبيس الخالي المندفع بنا في وسط أثينا للوصول للأسواق لشراء مستلزمات للمسافرين.

في الميكروفون تحدث السائق بالعربية قائلاً: «من فضلك عيب كده».

ونزلنا من الخجل في المحطة التالية.

******

في أول أيامنا بكاليثيا اعتاد محمد صلاح أن ينزلق من شارعنا؛ ليقف على الناصية؛ ليشتري علبة سجائر، من الكشك تطل عينان،

ويمد صلاح يده بالدراخمات، ومع الوقت اعتاد أن يردد: «يا بلد الشراميط والرجال نسوان»، وقبل أن يستكمل شريط الشتائم، يمد صاحب الكشك يده بعلبه السجائر قائلاً: «أفخارستو بارا بولي»؛ أي شكراً شكراً جداً، وينطلق صلاح لمصنع القمامة.

يوم الأحد كنا عزمنا الذهاب إلى شواطئ «فولا»، وخرجنا على ناصية الشارع، وبدأنا نسأل عن الأتوبيس الأخضر، الذي يجوب الضواحي.

استوقفنا عدة أشخاص؛ لنسأل عن فولا والأتوبيس «البراسنو الأخضر».

قفز رأس صاحب الكشك من الشباك قائلاً بالعامية المصرية: «يا حبيبي إنت محتار ليه، إمشي يمين ثالث ناصية، تلاقي محطة البراسنو».

في آخر إحدى الأمسيات، كنت عائداً بالأتوبيس الزجاجي، والمقاعد خالية، عندما قامت عجوز؛ لتجلس بجواري، وأفسحت لها مرحباً.

نظرت نحوي باسمة وقالت بالعربية: «مصري؟».

قلت مستغرباً: «نعم».

قالت وهي على وشك البكاء: «أصل أنا مصرية».

ترتدي فستاناً رقيقاً، أبيض وعليه رسوم صغيرة من الورد، ومدت يدها واستخرجت من حقيبتها محفظة بداخلها صورتها عندما كانت صغيرة في مصر وقلت ضاحكاً: «وهل ما زلت تتذكرينها؟».

قالت: «أنا مصرية يونانية، من الإسماعيلية، رجعت اليونان لكن أنا مصرية، الناس هنا مش بيحبوني، أنا كنت مبسوطة،الناس هناك طيبين».

قلت لها: "ولماذا لا ترجعين؟"

قالت: «تأخرت.. وأخاف ألا يتذكرني أحد هناك.. أكيد جيراني ماتوا».

قلت: على الأقل تزورينها سياحة، قالت غاضبة: «أنا سائحة؟ لا.. أنا مصرية.. حد يبقى سياحة في بلده؟ لا.. أنا نفسي أقعد مع الناس في الشمس ونتكلم زي زمان وناكل بسبوسة.. بسبوسة بالسمن البلدي.. وشمام الإسماعيلية.. وما نجة الإسماعيلية».

أشرق وجهها باستعادة الماضي فقالت: «إنت عارف؟. حتى المعفن اللي بيوقف في الشارع؟ أنا باحبه ورائحته جميلة».

وظلت ربع ساعة تصف ذلك المعفن، حتى عرفته، بائع عربة الفشة والطحال والسمين.

-٩-

وصلنا فولا بالأتوبيس البراسنو أنا وصلاح ومعنا الشيخ عيسى.

الشيخ صاحب كرامات، وعندما انتقلنا من كاليثيا عند خالتي تولا تمهيداً لرحيل صلاح بعد أيام، حضر ليسكن معنا، وحرص كطالب أزهري على تحديد القبلة، ورسم محراباً على الحائط باتجاهها، وكان لا يقعد على المرحاض، بل يرفع الغطاء البلاستيك، و يجلس عليه بقدميه، وكأنه مرحاض بلدي؛ لأننا أنجاس.

تجليات عيسى بعضها تحقق، عندما أشار علينا بالبحث عن عمل في إحدى المناطق الصناعية، ووجدنا نحن الثلاثة أعمالاً، ورجعنا نلهج: «بركاتك يا شيخ عيسي».

ومن أجل رد الجميل دعوناه لزيارة شارع سنجرو لمشاهدة الشواذ، والاستمتاع بمعاكسات المخنثين فرفض في صرامة، ودعوناه للسينما فقال إنها تعرض مشاهد جنسية، قلنا إنها غير أفلام السكس فقال: ولو.. إنها تعرض بعض المشاهد العارية، وقد كان صادقاً.

وعندما عرضنا أن يذهب معنا إلى بلاج "فولا" فوجئنا بموافقته، وعززها بقوله: «علّموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل».

******

كبائن البلاج في "فولا" مختلطة، راح صلاح؛ ليخلع ملابسه، سمع أنيناً مكتوماً، تأخر في استبدال المايوه، زاد الصوت وانتظم، صعد لأعلى على الدكة المخصصة للجلوس داخل الكابينة، وكان السقف مفتوحاً مع الكبائن المجاورة، لمحها في الكابينة المجاورة خارجة من البحر تلحس الجيلاتي ممددة على الدكة، فاتحة وركيها، وهناك رأس بين فخذيها، رأته فابتسمت ولم ترتبك، وواصلت غنجها، ووضعت إصبعها على فمها محذرة، ونزل صلاح.

بمجرد وصولنا على الرمل الساحر المفروش بالورود والنجيل الأخضر، مددنا أنا وصلاح مفرشاً على الخضرة، وسط الفاتنات النائمات، وبعضهن يلعبن بالكرة.

كان الشيخ عيسى فاتناً بالمايوه الأحمر، وانزلق مشتاقاً للمياه، والنساء من حولنا وفي الماء، يخلعن بمجرد وصولهن، نصف المايوه الأعلى؛ ليتعرضن للشمس، وبعضهن يضعن على أثدائهن المكشوفة الدهانات، أو ينمن على بطونهن مستمتعات بنسمات الهواء وصوت البحر وعذوبة أشعة الشمس.

التأمل لم يدم طويلاً، فقد تابعنا أنا وصلاح صرخات قادمة من البحر، وفي البداية لم ننتبه، لكنها زادت.

حدق صلاح بعيدا، وفي النهاية هتف: «يانهار أسود.. عيسى».

كان الشيخ يخور كالثور على كل النساء بلا استثناء، وهن يقفزن من أمامه، وبعضهن هربن إلى المياه العميقة، لكنه قرر أن يطاردهن بالعوم الكلابي.

سبحت إلى عيسى في وسط الماء، وحاولت إيقافه، لكنه كان يردد هائجاً: «والله لازم نركب النخل».

بعد تدخل صلاح أرجعناه للبيت، ولم يعد ينصحنا بالصلاة.

-١٠-

- «إصحي يا وسخ».

لكزني محمد صلاح، نائماً كنت تحت ثلاث بطانيات، محتمياً من البرد.

- «اطلع من تحت الغطا».

- «طيب بس فيه إيه يا صلاح؟».

- «مين عمك وتاج راسك؟».

- «إنت طبعاً».

لطشني" على وجهي، وهو يكرر: «وإيه رأيك في القلم ده؟؟».»

- قلت: «جمييييل».

صلاح، هوايته إقلاق منامي، أغادر البيت في السابعة صباحاً لمصنع البلاستيك، بعد أن انتقلت وردية الصباح لحاجة العمل، وهو يخرج في الخامسة قبلي بساعتين لمصنع الورق، وقبل أن يغادر يستغل خروجه المبكر، في صفعي والاستمتاع بالاعتراف بأنه أبو الرجال.

كان ينتقم؛ لأنه من يومين حضر ليلاً، فقلت: «دعني؛ لأنني تعبان دي بلد بنت وسخة».

«سمير وعويضة وعادل قبضوا عليهم ورحلوهم وأخذوا كل ما معهم».

الكلام جاء على هواه، وهو المغادر بعد أسابيع، وظل يردد: «يا أولاد الكلب »

وتركني ونمت سعيداً.

سمير وعويضة وعادل في اليونان من عامين ولهم الفضل في توفير السكن وعمل معظم الدفعة، ، وكان المطر في الخارج سريعاً، وبعض القطرات تلتوي، ولا تسقط على الأرض، وتصعد للهواء نتفاً ثلجية كالفيشار.

ارتدى صلاح المعطف الثقيل وفوقه بالطو ومعطف للمطر، ورفع شمسية، وخرج محذراً الدفعة من مداهمات البوليس للبيوت، وقف تحت بيت محمد عطية ونادى، وبمجرد أن أطل وعرف الحكاية خرج مع أربعة، وذهبوا لبيت بكر؛ ودقوا الجرس؛ ولما وصف صلاح الكارثة نزل مهرولاً، بعد خمسة بيوت كان صلاح يمشي بين عشرين ليحذّر شوقي، وكان مثلنا يسكن بالدور الأرضي مع ثلاثة آخرين، أزاح الباب عند الحديقة، وكان النور مُضاءً، دقوا الجرس ودخلوا عند شوقي، وكان ضيوفه سمير وعويضة وعادل يحتسون الشاي، وشاركوا جميعا بزفة محمد صلاح؛ لذلك كان صلاح ينتقم مما فعلت بضربي كل صباح.

جناح فريقنا في الهاندبول اللزج، كان يستأذنني في المباريات الرسمية في إضاعة أول كرة، ويقتحم دائرة الستة أمتار من نقطة الصفر، وعندما يسد الحارس المرمى بجسده، يطير صلاح؛ ليصبح على بعد نصف متر من المرمى، ويطلق مدفعاً من يده على وجه الحارس؛ ليصاب بالشلل من عنف الضربة، وبعدها ينطلق صلاح من الجناح، بينما الحارس المرتعش يوسّع للكرة طريقاً للمرمى خوفاً على وجهه.

قال ضاحكاً: «أنا يا بن الكلب تعمل معايا كده؟».

قلت: «عملت إيه؟ ده انت أخويا ومثلي الأعلى في الحياة».

أمسك بتلابيبي صائحاً: «وكمان بتستعبط؟».

قلت ضاحكاً: «لاحظ إن دي فيها دقيقتين طرد، وأنا صانع اللعب وكابتن الفريق يا روح أمك».

تركني وجلس يقهقه على السرير قائلاً: «بس المقلب حلو يا بن الكلب».

******

صلاح ظل شهراً ينتقم بإيقاظي في أحلى ساعات النوم، يصحو في الرابعة؛ ليفطر ويدخل الحمام، ويملأ العلب بطعام الغذاء، ويرتدي المعطف الثقيل، ويخرج في الظلام الدامس، طوال فترة التجهيز يروح ويجيء كالأتوبيس؛ ليدهسني، مستمتعاً ب"تلطيشي"، وإقلاق منامي، والحصول على اعترافات بأنه سيّدي، وأن أفضل واحد من عائلتنا يتمنى أن يعمل لديه خداماً.

صلاح لينام يذهب للفراش مبكراً، قبلنا بساعتين، ليصحو مبكراً، وقبل أن ينام تعشى، وضبط المنبه على الساعة الرابعة.

كنا في الصالة، نلعب الكوتشينة، بعد نصف ساعة، من نوم صلاح، أخذت المنبه وضبطته، بحيث يدق الرابعة بعد ربع ساعة، وأطفأنا كل الأنوار، ودخلنا تحت البطاطين.

رنّ الجرس، وانتفضت عضلات الثور النائم من تحت البطاطين الدافئة وصرخ، وخرج صوت صلاح قائلاً: «يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم».

وعرج على سريري وضربني قائلاً: «إصحى يا زغلول يا بن الوسخة»، ودخل المطبخ، ووضع أمامه طبقاً عامراً من الفول، وآخر من البيض مع البصل، والتهم المائدة.

بعدها دخل الحمام وتبرز، وخرج صائحاً: «جاي اليونان ياوسخ تعمل إيه؟؟ تبصبص عالبنات؟».

«يا سافل يا قليل الأدب».

وضربني مرة أخرى سائلاً: «إنت متربي إنت؟».

قلت محتجاً من تحت البطاطين: «صلاااح».

فكرر محتداً: «إنت متربي؟»، قلت: «طبعاً لا».

قال: «ماشي طبعاً دلوقت مؤدب».

وخرج ليحتسي الشاي وبعده القهوة.

خلا مع نفسه دقائق، وارتدى البالطو وفوقه معطف المطر، وصفق الباب.

كانت الساعة التاسعة مساء تقريباً، عندما خرج، يومياً يخرج قرب الفجر، ولا أحد في الشارع سواه، لكن الشوارع على غير عادتها كانت مزدحمة بالناس،

وعلى ناصية الشارع شاهد الواقفين على باب المقهى ومن يلعبون الدومينو.

التفت خلفه؛ ليجدنا واقفين في انتظاره، وضحكنا للصباح على تبرزه، والابتلاع "الطفس" للفول والبيض؛ برغم أنه ملأ بطنه من عشر دقائق.

ذات مساء عاد صلاح يعلوه التراب، وارتمى على المقعد، قلت ضاحكاً: «أبو صلاح الجامد فين أمجادك، فين تاريخك؟»، تلفت حوله في حذر، وهزّ رأسه الثقيل خوفاً من مقلب جديد، ولما اطمأن قال: «اسمع أنا ها سافر».

كان يعمل في مصنع للورق، لكنه في الحقيقة مصنع قمامة، يُعيد تدوير الورق، صلاح لم يكن يزعجه أن يرفع تلك الأكياس العملاقة على ظهره، كان كالدب الذي تقرصه البراغيث، يكره التراب المتساقط من الورق، ويعجز عن دفعه.

-١١-

غادرنا صلاح بعد ثلاثة شهور، وبقي الشيخ عيسى وحسان وعاطف وجابر، والأخير كان نحيلا طويلاً كعود القصب الهارب من الغيط، وعندما هاجمناه لتأديبه، قيدت يديه، وصِحت فيه: «بتخبي إيديك خايف ليه؟».

فأخرج يده الأخرى من تحت البطاطين صائحاً: «هيء هيء».

كان واضحاً أنني أمسكت شيئاً آخر.

بعدها صار جابر الخجول المؤدب، أيقونتنا، نتحسسه لنصاب بالعدوى، ونتسلل لاختراق الحمام وهو عار فيصرخ، ونراهن على بيع قدرات جابر بملايين الدراخمات.

في شارع "سنجرو"، الشواذ يصطفون على الجانبين، نهود بارزة، وأفخاذ وبطون عارية، والبعض ينام داخل سيارات منيرة لعرض مفاتنه، في الشارع عبر قس بمسوحه الكنسية السوداء، ولما لفت نظره جابر، صدمه من الأمام صدمة أسكرت القس، وبعدها لم يفارقه، وتصبب عود القصب عرقاً، وهو يبحث عنا، واختبأنا؛ لنتفرج على جابر، وهو يقطع المسافة بطول الشارع، وهو يهرب من ملاحقة القس ويقفز من رصيف إلى رصيف.

عند أجمل الفاتنات الرجال توقفنا بعد إنقاذ جابر، وكان المخنث واقفاً على الحائط فوق الرصيف يمضغ لبانة، بميكرو جيب لا يزيد على ٢٠ سنتيمتراً، تحته لباس أسود، ينكشف مع كل حركة، وصدر يقفز بجنون، بدون حمالات ثدي، على بطن مختمر كالعجين، كان أجمل من كل بنات الدنيا، ويزيد عليهن في الإغراء.

سألناه: «ماذا عندك؟».

فتلفت حوله وكأنه يذيع سراً: «ليس عندي شيء من الأمام».

سألت: "ما كل هذه الحلاوة؟" ومددت يدي لأتفحص البضاعة فتراجع في خجل.

قلت: "وماذا سنفعل معك، وليس لديك شيء من الأمام." قال: «ممكن من الخلف».

وأكمل: «وممكن باللسان في السيارة».

«اللسان بـ٢٠٠ دراخمة، ومن الخلف بـ ٣٠٠ دراخمة».

قلت: الأسعار عالية، و نحن طلبة نريد تخفيضاً.

قال في خجل: «لا... أنا جميلة».

قال عاطف: موافقين، هذا الولد يريد من الخلف، وأشار لجابر،

نظر لجابر، وتراجع على الرصيف خائفاً: «لاااا»، «أنت؟»، سائلاً جابر.

قلت: «نعم وما المانع؟».

قال: «لاااا... هذا ألف دراخمة».

حاولنا إقناعه بأن أصبع بطن جابر لا يزيد على عقلة الإصبع، وهو يردد في حسم: ألف دراخمة». »

وفي النهاية، وبعد مجادلات قال: «إن كان كلامكم صحيحاً أراه».

وانصرفنا نهتف للمعلم جابر.

-١٢-

تأخر مصطفى في المساء، وشعرنا بالقلق، وخالتي تولا قررت ارتداء فستانها الوحيد والخروج للسؤال عنه، وعندما عاد متربا يحمل جوالا من الفاكهة على ظهره أخذته بالأحضان.

سولا اعتادت أن تقعد معنا في الحديقة، يوم الأحد وضعنا كاسيت بعد الخامسة ووقفنا نرقص معها، على أنغام «فوق غصنك ياليمونة» لفريد الأطرش، وبدأت تتعود على هز مؤخرتها كالراقصات المصريات، اقتحم عملاق طويل، باب الحديقة، ووقف صاخبا، ليرقص على طريقة زوربا في مواجهة سولا، وضحكت خالتي تولا وصفقت.

يورغو جارنا المسن الصياد، بعد وصلة الرقص، وفنجان من الشاي، صار صديقنا.

عرفنا من تولا أن يورغو مريض، يوم الأحد التالي حملنا صحبة ورد ومعنا تولا، لنزوره في بيته المجاور، كان زعيما لقبيلة، ووجدنا أنفسنا بين بناته، وحفيداته من المراهقات، أكثر من خمس عشرة فتاة وامرأة معظمهن جميلات، وقال أحدنا إن يورغو يتمارض؛ لكي يُحيط نفسه بكل هؤلاء الفاتنات، وضحك يورغو.

قال لنا إن لديه مركبا لصيد السمك، وحكى جانبا من مغامراته مع البحر، وسط لمعان عيون حفيداته المراهقات واعتراض بناته على حكاياته، التي من الواضح أنهن سمعنها كثيرا.

سألت إحدى بناته: «وأنتم ماذا تعملون في مصر؟»، «فقلنا: طلبة جامعة».

تلفتن حولهن في إعجاب، وقالت البنت الكبرى: «مسلمانو»، وأجبنا جميعا: نعم.

قالت إحداهن: «مسلمانو... رمضان» قلنا: نعم.

قالت: «لا تأكلون؟» قلنا: نعم، فقالت: «ولا...»، ونطقت كلمة، ونظرنا لبعضنا؛ لنتأكد مما تقول.

أعادت الكلمة، والتفتنا نستنجد بيورغو، وكان يتتبع ما يقال من على سريره ضاحكاً، فأخرج يده من تحت الغطاء، مشيراً بعلامة النكاح قائلاً: «ولا.... ».

فقلنا في نفس واحد: «لا».

وسقطوا جميعاً من الضحك.

قضينا ربع ساعة نحاول إفهام يورغو وحفيداته وبناته، بأننا في رمضان نتوقف عن الطعام والجنس، إلى قبل الغروب، لكننا في الليل نفعل الأفاعيل.

وسأل يورغو عن الختان، وقال إنه شاهد أحد الأفارقة يتبول، كان بدون غلف، كالخيار تماماً.

مات يورغو، وافتقدنا جاراً طيباً، وذهبنا للعزاء، واحتسينا كونياك، وتناولنا هريسة فاخرة، لم يكن هناك عويل ولا صراخ.

بيوت تزيزيفيز الحميمة، فقيرة في طرقاتها، لكن تسمع السلام بين الجيران، وخالتي تولا تغرد من شباكها؛ لإلقاء تحية الصباح على جاراتها، وعندما علا صوتهن من الاشتباك، لمرة وحيدة،خرجت خالتي تولا يومها بالفستان الأزرق الوحيد والبروش تقليد الألماس، وأطلقنا الصافرات خلفها؛ لنعاكسها، قالت إنها ذاهبة لانتخاب بابا ندريو، وكانت ميادين أمونيا وسي دغما تغلي بالواقفين في مناقشات لا نهائية، شعب بأكمله يقف في الشوارع والميادين، من كل الاتجاهات السياسية للتجادل.

أعلنت النتائج في المساء، وانحسر الزحام عن الميادين، وعادت خالتي تولا وصديقاتها يغردن كالعصافير.

-١٣-

عند أورانيا يغرد الياسمين على حبال الحب والجمال.

عرفتها هناك على جبل بلاكا، الصاعد إلى الأكروبول، حيثُ كتب اليونانيون القدامى: «أعرف نفسك».

وصلت للمطعم؛ لأبحث عن عمل إضافي، فلاخوس، مطعم الفلاحين، أمام بيتها.

في المساء صرت مكلفاً بغسيل الأطباق، وفقاً لتوجيهات صموئيل، الجارسون المصري.

انتهيت من عملي سريعاً، ووقفت على باب المطعم، ورأيتها لأول مرة تتحدث مع إيلين.

سبعة عشر عاماً من الجمال، ملاك من الياسمين وعيونها نصف جمال الدنيا، والباقي أنفها اليوناني والفم الدقيق، وشعرها الأسود الفاحم المسدل، على حمرة من الخجل.

اقتربت إيلين قائلة: «إزيك».

قلت: «بتتكلمي عربي؟» قالت: «شوية شوية».

كانت أورانيا قد انسحبت؛ لتقف على عتبة البيت.

قالت إيلين: «حلوة... تحب تكلمها؟؟».

قلت مضطرباً في أول أيامي: «لا.. لا».

أعطيت لإيلين قطعة شيكولاتة صغيرة، وصرنا أصدقاء، وأحضر لها كل يوم وردة.

إيلين هولندية تتحدث العربية والدويتش (الألمانية) والداتش (الهولندية) والإنجليزية والفرنسية والقليل من العبرية.

قالت إنها تعلمت القليل من لغة بني إسرائيل عند زيارتها لتل أبيب، وأن شقيقتها متزوجة هناك.

إيلين ابنة رجل أعمال هولندي ينتج السفن العملاقة، قررت أن تجوب أوروبا وإفريقيا وآسيا، لكنها تعثرت وتزوجت من مصري في اليونان.

******

من اليوم الأول اصطدمت بجلافة الجارسون صموئيل، كان حاداً في التعامل معنا، أنا وعاطف، ولما رددت عليه، قرر أن يتركني في المطبخ مع الأطباق والصابون؛ ليعذبني كوستا، وأخذ عاطف جارسوناً في الدور الأعلى.

بعد ثلاثة أيام كنت واقفاً مع إيلين نضحك أمام الباب، بعد أن انتهيت من تجهيز المطبخ، فقال في غيظ: «هل تعجبك.. وتعاكسها؟؟».

وقبل أن أرد قال: «إنها زوجتي»، ورمقته إيلين في غضب.

فلاخوس، مطعم الفلاحين ثلاثة أدوار، الأول تحت الأرض وبداخله المطبخ، والزائر يصعد دورين على السلم، بصعوبة بالغة؛ لأنه سيدخل في متاهات من الأبواب الوهمية والدهاليز المسدودة والخدع إلى أن يكتشف الطريق إلى السطح؛ ليجد نفسه أمام بانوراما أثينا من ارتفاع ألف متر.

الدور الثاني كان مزدحماً دائماً بصرخات السائحين، الذين يسقطون من الضحك على المقالب، والعشاق في المتاهات يتبادلون العناق، ولا يريدون الوصول أبداً، ويتبادلون الهمسات قبل الصعود.

علي قمة المطعم ٢٠ طاولة حمراء، وأمامها باند للموسيقيين، وفي الخلفية صنابير وقنان من الزجاج، يفتح الصنبور على برميل معتق من الريتسينا، النبيذ الأبيض اليوناني، ونبدأ في الخامسة مساء استقبال الزبائن حتى الثانية فجراً.

يمتلك المطعم ثلاثة أشقاء، كلهم لم يتزوجوا، مانولي يدير البانوراما في الطابق الأعلى والحسابات، لورد بكل المقاييس، شياكة وجمال ونظافة، لا يريد أن يكسب ولا يهتم، عمره ٧٠ عاماً، ولا يطلب من الدنيا سوى أن يستمتع مع الأصدقاء بالسهر والحياة، وكان معظمهم يقضي اليوم عندنا مجاناً.

شقيقتهم الوحيدة عانس، كانت تحضر أحياناً وترحل.

كوستا رفيق المطبخ، كان على عكس مانولي يصغره بعامين، لكنه بخيل ويعمل بيديه طباخاً؛ ليوفر.

في أول المساء، يقف كوستا أمام صورة أحد القديسين، وكان يضع أمامها شمعة، والشمعة مغموسة في الزيت؛ حتى لا تحترق سريعاً توفيراً للنفقات.

يقول كوستا للقديس: «أنت تعرف جيداً أننا لا نجد ما نأكله... وليس عدلاً ما يحدث.. نحن نعمل كل يوم، كل يوم.. ونصلي، وأنت لا تفعل شيئاً... حرام أن تتركنا».

وقبل أن يزداد انفعاله غاضباً، يشعل عود ثقاب، ويشعل الشمعة؛ لتسدل نوراً على وجه القديس.

«يني».. صاح كوستا.

كان قد قرر تغيير اسمي العربي؛ لأنه لا يعرف كيف ينطقه.

«أخرج إلى الشارع نريد زبائن هذا حرام».

كان يحترق في المطبخ وسط اللحوم والبطاطس المقلية وأذناه على السلم الخشب؛ ليسمع أقدام الزبائن، وقبل أن يشتبك مع النيران، يرش قليلاً من السكر على الباب؛ ليمنع الحسد.

صعد للمطعم جروب من التشيك، فتيان وفتيات، وانبعثت ضحكاتهم الصاخبة وصرخاتهم، وهم بالشورتات القصيرة والمايوهات، يبحثون عن طريقة للوصول إلى أعلى المطعم.

صاح من تحت الأرض: «يني... يني».

قلت: «نعم يا سيد كوستا جروب جيد».

قال: «شكراً يا ينى..أنا أحبك يا بني تعال.. تعال.. لنعمل بسرعة لتجهيز السلاطة اليونانية الخورياتيكي».

«كم عددهم؟».

قلت: «تقريباً ٤٠».

قال مفتخراً وهو يفرك يديه: «ووووو»، ورسم علامة التثليث والصليب،

وذهب مسرعاً نحو الشمعة، ونفخ فيها؛ ليسدل الظلام على القديس.

أغلب الأيام كان كوستا يعمل بلا مقابل؛ لأن الأقدام التي يسمعها، ويهرول لخدمتها، من أصحاب مانولي، يأكلون مجاناً.

كان يخاف مانولي، ويخجل منه، ولا يجرؤ على مناقشته طويلاً.

علي أن «أنا كيتي» شقيقتهما عرفت بما يفعل مانولي، كان بعض الحاضرين من أصحابها، وحضرت مرتين؛ لتفضحهم، وسيطر مانولي على الموقف، وانفعل كوستا.

-١٤-

بيت صموئيل وإيلين، غرفتان وصالة، لكنه جنة، يطل شباكها على أثينا من ارتفاع شاهق، وتفتح أبوابها على العشرات من السائحين النائمين في الطرقات احتفالاً بوصولهم لأرض آلهة الأولمب، و يحملون آلات موسيقية ويرقصون في الشوارع حتى الصباح.

في العصر والصباح، تخفت حركة الأقدام في جبل بلاكا، وكنت يوم الأحد لا أعمل بالمصنع، لكنه يوم عمل مهم بالمطعم، وأصعد الجبل مبكراً، ومررت من على باب صموئيل، وعرجت على دوران الشارع.

السيد لوخاندرو جالساً من الحر، على باب البيت، بالشورت القصير، فارداً قدمه على الآخر؛ لتدخل تحت تنورة سونيا، وأصابع رجله تداعب ما بين ساقيها، وقد رفعت فخذها؛ وضمت ركبتيها على الكرسي.

لوخاندرو عضو البرلمان اليوناني في دورات سابقة، لا يقل عن ثمانين عاماً، وسونيا ٢١ عاماً، نسمع صرخات أمها، تحضر؛ لتفضح لوخاندرو وتدعو عليه، بعد أن أضاع ابنتها.

سونيا جميلة وعارية دائماً، وحسمت المعركة با نحيازها للوخاندرو.

يرسلها أحياناً لمطعمنا؛ لتملأ قنينة نبيذ أبيض (ريتسينا)، قبو الخمور ممتد تحت الأرض ومزدحم بالبراميل لتعتيق النبيذ.

دخل عاطف ليملأ لها الزجاجة، وأزاح بنطلونها الجينز فلم تعترض، ومالت على البرميل، وظل يطعنها من الخلف وتتأوه، لولا نباح كوستا في أول القبو منادياً فخرج عاطف مسرعاً، كوستا تأملهما طويلاً، أخبره عاطف أن السيد إليخاندرو طلب النبيذ مجاناً بناء على توجيهات مستر مانولي فصاح كوستا: "مانولي... مانولي لن نجد ما نأكله".

ونصح عاطف أن يخبرها في المرات القادمة بأننا فقراء.

لم يكن كوستا راضياً عن حياته، وعندما عاد من مزرعة العائلة، محملاً بالتين والزيتون والخوخ والعنب، صاحت جارتنا خاسيا: «كوستاااااكي».

عمرها خمسون عاماً، ووحيدة، وكوستا بين الحين والآخر يزورها.

عندما سمع صوتها لطم وزمجر.

النساء.. النساء» لا يردن سوى الأكل والنقود. »

قبل أن تهجم علينا استخرج التين الفاسد وبعض عناقيد العنب المجهدة والخوخ، وقال: «يني حبيبي اذهب بها إليها قبل أن تقتحمني»، وأشار بالتثليث؛ ليحتمي من طمعها بالمسيح.

******

أرحل في نهاية المساء مع مطربة المطعم جوليانا، كانت في العقد الرابع، ونهبط الجبل في الثانية فجرا؛ لتستقل تاكسي، وأنتظر الأتوبيس.

في آخر الليل، مرقت أمامنا فاتنة، أخرجتني عن وقاري المكتسب من مصاحبة سيدة فغازلتها، ووسط دهشتنا استدارت وجاءت ناحيتنا.

عارية إلا من نصف تي شيرت ضيق، وتحت عنقها الجميل نهدان منتصبان ولا أروع، وتنورتها القصيرة، لا تزيد على ارتفاع لباسها الداخلي، وساقاها الطويلتان في رشاقة، تلتقيان عند مؤخرة لا تنزل من عليها العيون.

قالت: «أنت حبيبي».

قلت: «نعم؟».

قالت: «هل تريد الآن؟».

انتبهت للصوت، كان رجلاً.

نزلنا من الجبل، أنا وجوليانا نسقط على بعضنا من الضحك، كانت جوليانا مثلي، قد توقفت؛ لتتفحصه جيداً.

وفي النزول قالت: «مستحيل.. نهداه.. واووو.. وجماله.. وشفتاه... ونعومة ساقيه».

وأردفت ضاحكة: «لو عندي نصف إمكانيات هذا الوغد؛ لكان كارامانليس رئيس جمهوريتنا ركع تحت أقدامي».

جوليانا من حقها أجازة والفرقة الموسيقية.

أخبرني مانولي بذلك، وكنت مع صموئيل، نعمل على خدمة الفرقة وأعضائها؛ لتشجيع الزبائن على الرقص، وبعد العشاء نشاركهم الرقص، ويضحك مانولي ويرفع الكؤوس في صحتنا، وتصل المتعة ذروتها عندما يضع صموئيل الصعيدي الكنبة بين أسنانه؛ ليرقص بها تاركاً ذراعيه بالهواء، ويصرخ زبائن المطعم من الانبهار.

نشتري أطباقاً للتكسير؛ ضيوفنا اليونانيين يحتفلون بجمال المرأة عندما ترقص، بتكسير الأطباق تحت قدميها، والكؤوس والأكواب، وحرصاً على تقليل الخسائر نشتري الأطباق المصنوعة خصيصاً لذلك، ويشتريها الزبون لاستكمال المتعة.

يوم غياب الفرقة الموسيقية، قلت لمانولي: «لن يحضر أحد وكوستا سيسلخنا».

قال: «لا تقلق لن تجد مكاناً في المطعم صديقي كواستيللو الموسيقار الشهير سيحضر، وهو نجم التليفزيون والسينما».

في المساء حضر وحيداً، في الثمانين من العمر، وحده مع آلة البوزوكي، الشبيهة بالعود، وازدحم المطعم حتى ضاق بعشاق فنه من الأجانب واليونانيين.

في العاشرة مساء، توقيت استراحة الموسيقى لنصف ساعة، توجهت نحوه كما أفعل مع الفرقة الموسيقية؛ لأعرف طلباته من المأكولات والمشروبات، وكنت مسحوراً بأداء ذلك العازف المسن، الذي أشعل النار في المطعم بالرقصات الصاخبة، والأغنيات القديمة التي يتأوه عند سماعها الجالسون، ويقفزون من أماكنهم غير قادرين على القعود؛ لينفجروا في حلبة الرقص مع بقية الأجساد الصاخبة.

سألته: «سيدي ماذا تشرب؟».

قال وهو يتفرسني: «سطل خروب وواحد عرقسوس».

ووسط دهشتي قال: «مصري وصعيدي مش كده؟ أنا عرفت من مانولي».

وأضاف: «شوف.. أنا ما يهمنيش كل اللي سمعته دا!!!.. أنا هاسمعك الشغل اللي أنا باحبه... ولو عايز حاجة اطلبها».

«ذهب الليل طلع الفجر والعصفور صوصو صوصو.. شاف القطة قال لها بسبس قالت له نونو نووو.. ناو ناو».

وارتج المطعم بالرقص، على أغنيات محمد فوزي وفريد وعبدالوهاب.

وبكى وهو يغني: «يا مصطفى يا مصطفى أنا باحبك يا مصطفى، سبع سنين ف العطارين وانا باحبك يا مصطفى».

قلت: أين عرفت كل ذلك؟ قال: «حبيبي أنا كنت رئيس فرقة محمد فوزي واسمي موجود في معظم أفلامه».

لم يأكل سوى لقمة، وشرب كأساً من الكونياك، وللم البوزوكي، وأدخله في الجراب الجلدي بمعاونة مرافق، وعانق صديقه مانولي وخرج، وقبل أن يرحل استخرج ٥٠٠ دراخمة ودسها في يدي، وقال: «سلم لي على مصر، لأن متهيألي مش هاشوفها تاني».

-١٥-

انتحر ذلك المخلوق.

قفز من الدور الثالث، معتقداً أننا ننتظره في الحديقة الخضراء.

وسقط على رأسه.

وبكت سولا بحرقة.. واحتضنتها.

أحضرت علبة كارتون، ووضعت بداخلها تاكي، وحفرت حفرة ودفنته في الحديقة.

وفي اليوم التالي جلب جابر من المصنع المجاور قطعة رخام مستطيل، وكتبنا عليها: هنا يرقد الجميل تاكي، وغرسناها على حافة قبره.

ونزلت سولا مهرولة؛ لترى ما نفعل.

******

شوارع بلاكا، معظمها يعزف موسيقى زوربا الشهيرة، وإلى جوارها، ليالي الأنس في فيينا، وموسيقى الربيع، وروائع عبدالوهاب.

يومياً أعود من المصنع في الرابعة، وأصعد للدور العلوي بالمطعم، واختصاراً للوقت أبدأ بتنظيف الطاولات والباند، وأصُف المقاعد، وأفرش الطاولات، وأستبدل بقناني النبيذ أخرى نظيفة، وأستريح على أحد المقاعد وأنام.

عين كوستا الماكر تراقبني، ويسأل نفسه لماذا أحضر قبل موعد العمل، وبدأ يشك في أنني أسرق الطعام.

جارتنا السيدة ليندا، الساكنة على الهضبة فوقنا على الجبل، زارت كوستا؛ لتطمئن على شقيقته، قالت إن هناك ولداً تراه كل يوم،

يصعد المطعم مبكراً، وينظف وينظف، حتى يلمع كل شيء، ويتعب ويستلقي نائماً.

صار كوستا يهلل عندما يراني: «أنا أحبك يا يني».

******

«واقف عندك تعمل إيه؟».

قالت إيلين.

فقلت: «زهق».

قالت: «أجيب لك شيكولاتة».

قلت: لا

قالت إيلين: أنا حامل وسأنزل مصر.

قلت: مصر؟

قالت: نعم.

قلت: صموئيل لم يخبرني.

قالت: لأنني سأسافر وحدي.

قضت أياماً تسألني عن الناس والشوارع والمدن، بنت صاحب مصنع السفن الهولندية تريد أن تعرف أهل زوجها قبل أن تضع طفلها الأول.

ظهر صموئيل. وقالت: صموئيل هل تحبني؟

كان مندفعاً لأعلى يحمل الأطباق، فصاح: «أنت ملوخية».

ناقشتني في معنى: «ملوخية»، ولم تقتنع.

وقالت إن صموئيل يقول أشياء غريبة هذه الأيام مثل: يا قمر.

فهل يقصد أنها كالحجر، وأنهم سيهبطون على وجهها؟

حاولت أن أشرح لها أن البدر في الصحراء مختلف، وأن المقصود أنها منيرة، قالت صموئيل يكذب أحياناً بلا سبب، هل تتذكر عندما سألتك عن ليلة الدخلة في صعيد مصر، وما يحدث للفتيات من فض غشاء البكارة بالأصابع، أنت قلت: نعم هذا يحدث، لكن صموئيل ظل يكذب، ويقول: هذا مستحيل، مع أنني قرأت ذلك في كتاب.

عادت إيلين من مصر بعد أسبوع، وهي تكاد تضربني، كنت قد شحنتها بقصص خرافية عن النيل والأهرام وليالي كليوباترا، وبمجرد أن شاهدتني احتضنتني بقوة. فقلت: مصر تمام؟

قالت: لاااا إنت كذااب مثل صموئيل، ومصر كله حرامي.

قاهرة كل الناس حرامي حرامي.. شيل شنطة حرامي.. ضابط مطار حرامي.. تاكسي حرامي.. مطعم حرامي... وأمسكت رأسها وكأن عاصفة تمر.. تووووت... تووت.. بيييب... بيب... حرامية حرامية.

وقفت حائراً، لكنها تداركت: طهطا «بلد صموئيل في سوهاج» كويس.

ناس طيبين... فقراء... لكن.. أهلا مدام... تفضل اشرب شاي... هواء نظيف.. وأم صموئيل وأخوته وأبوه ناس طيبين.. لكن أم صموئيل تعذب الإوز.

تحبس الإوزة بين أفخاذها؛ لتحشو فمها بالفول والذرة.

الإوزة تصرخ: لا...

فتملأ أم صموئيل فمها بالماء، وتمنح الإوزة قبلة، وتفرغ الماء بجوفها، بينما الإوزة تحتج وتصرخ.

ولا تهدأ أم صموئيل إلا بعد أن تجس بيدها حوصلتها، وقد انتفخت، وتتركها خامدة غير قادرة على الحركة.

بعد تعذيب الإوز توقفت إيلين، ومدت يدها وقالت: أم صموئيل فنان.

صمم من أجلي فستاناً، ودخلت وعادت ترتدي جلباباً عجيباً مليئاً على طريقة الفلاحات بالزهور العملاقة الفاقعة الألوان، والفتحة سفرة يحددها شريط على الصدر والأكمام مع بعض الكشكشة عند الذيل.

كانت منسجمة، وظلت تدور في مكانها وأنا وصموئيل مذهولان.

وشرحت سعادتها لإنها ستذهب بالفستان لحفل الإيظابيو الموسيقى، كانت حديقة الإيظابيو تنظم حفلاً موسيقياً أوركسترالياً كل أسبوع، يحضره الزوار بالملابس الرسمية، وبدأنا نشعر بالخطر، لكنها أصرت وراحت.

في نهاية اليوم قالت إنها كان محط أنظار المدعوين، وأن الفضل لأم صموئيل؛ لأنها ألقت عليها نظرة واحدة، فصنعت هذا الفستان الجميل.

فصاح صموئيل: ملوخية.

وصاحت هي: أاااااه هذا هو الشيء الوحيد الذي نسيت أن أسأل عنه في مصر، وبدأت تنظر نحوي في قلق، لعل عندي تفسيراً آخر.

أدخلتها متاهات وأفهمتها أن الملوخية أنواع: بالأرانب والفراخ واللحم والمواسير، وأن هناك الملوخية الخضراء والناشفة والشلولو.

******

جاء محفوظ، وهو لمن لا يعرفه، جدير بالاحترام، قصير سمين، قطع من عمره ٤٥ عاماً؛ ليطلب أن يعمل في مطعمنا؛ لأنه لا يجد ما يأكل، الطلبات عند كوستا في الدور الأول، والمطعم والزبائن في الدور الثالث، يصعد محفوظ بالطلبات مرة أو اثنتين، وبعدها، تراه نائماً على كرسي

في أحد الأركان، يوماً ما أصابه كابوس، وصحا وهو مازال يتحدث مع نفسه، وكان يعترض على الآلهة، وتوزيعها للرزق؛ محفوظ دفعة عادل إمام وكان يغششه في كلية الزراعة، وحاصل على ماجستير، ومع ذلك فإن الرب يعطي عادل إمام مع أنه غبي وشكله قبيح، ولا يعطي محفوظ، ومن بعدها صار يعمل معنا بلا استئذان، يختفي عدة أيام، ويعود؛ لينام على أحد الكراسي من التعب.

******

إيلين تتمشى يومياً للحمل، وذهبت معنا للبحر، وبطنها المنتفخ يطفو فوق الموج.

وفي أول يوم ولادتها ذهبت مع صموئيل للمستشفى مع الورد، دخلنا حجرتها كانت عارية تماماً، إلا من رداء أخضر مفتوح من كل الجوانب، وكانت ترتب سريرها استعداداً لملاقاتنا.

تعارك صموئيل مع مانولي للاختلاف على الأجر، كان يحمل إقامة، وتغيّب عن المطعم، وصرت الجارسون الرئيسي بالمطعم، بعد أسبوع زارني وقال إنه سينتظرني؛ لأن لدينا موعداً مهماً في الصباح، وقال إنه يعرف أن غداً الأحد إجازة المصنع.

-١٦-

رجعت للبيت من وردية مصنع البلاستيك أحمل كيساً، بداخله كراسي وطاولات وبوتاجاز وثلاجة وسرير ودولاب.

المطر يفور ويتطاير بشدة.

طرقت الباب على تولا.

فتحت بجلبابها القطني الخفيف، وهي تضع شالاً قطيفة على كتفيها.

أدخلتني صالتها.

قالت: «أنت مجنون، اخلع ملابسك المبتلة، واجلس بالقرب من المدفأة».

رائحة الكرنب المسلوق تفوح من مطبخها، وبعد دقيقة خرجت بالشاي مع الكعك.

كنت قد صففت على طاولتها الوحيدة، أثاث شقة متكاملة.

صاحت: "واووو... جميلة وأين العروس؟"

كانت تتأمل لعب البلاستيك الصغيرة المصفوفة.

قلت: «أنت....».

أريد أن أتزوجك حالاً.. وأظن لا عذر عندك الآن وهاهو عش الزوجية».»

ضحكت من أعماقها.. وارتجّت ملامحها.

سرحت بعيداً.. وقالت: «أنتم طيبون».

«تفضل الشاي»، مدت يدها النافرة العروق بالفنجان، وارتعشت، واشتد صوت المطر في الخارج.

قلت وأنا أسحب الفنجان من يدها: «هل ما زلت تحبين مصطفى أكثر مني؟».

لفَت شالها بإحكام حول كتفيها: «أنا لم أنجب أولاداً، وعندي بنت وحيدة لكنها بعيدة».

«مصطفى.. متى يعود؟».

قلت: «لا أعرف.. لكنه يفكر في السفر لفرنسا».

على باب بيتها، قبلتني شاكرة، ولفَت على عنقي الكوفية.

«شاب جميل».

ووقفت تودّعني، وأغلقت على نفسها الباب.

سلطان سلطان سلطان سلطان

مع اقتراب الصيف وصل وفد جديد من طلبة الدكتور الحرامي.

رحت للفندق وحملتهم جميعاً في أتوبيس واحد.

وذهبت لصديقتي صاحبة المخبز، قلت لها إن عمارتها خالية، وهؤلاء سيسكنون عندها، ويبدأ تسديد الإيجار بعد شهر، ووافقت وسكن بالعمارة عشرة أدوار.

بعد شهرين أخبرني أحدهم أن القط لا يسدد الإيجار.

سألت صاحبة المخبز، فقالت إنها لا تريد؛ لأن القط مسكين ومريض وليس عنده دراخمات.

وقالت: هذا صحيح؛ لأنه ضرب رأسه في الحائط أمامي، فانفتحت وتفجرت الدماء، أنا لا أريد إيجاراً منه، إنه مريض صدقني.

انتظرته حتى المساء، وقلت إنني سأبلغ عنه البوليس، إذا لم يسدد الإيجار.

تذكرت صاحبة المخبز الطيبة.

أرسلنا لها ـ أنا وصلاح الشيخ عيسى؛ ليشتري خبزاً.

وكانت تشكو؛ لأنها فوجئت بأننا نطلب عشرة أرغفة، وكانت في دكانها تصُف الخبز، وكل رغيف مكتوب عليه اسم العائلة التي ستشتريه.

اليونانيون يأكلون قليلاً من الخبز.

في المطعم اليوناني نعمل برغيفين طوال اليوم، نقسمهما إلى شرائح، ونضع أمام الزبون شريحة أو اثنتين، والزبون غالباً يكتفي بقضم لقمة، ويتفرغ لأكل شريحة اللحم الفخمة والسلاطة، أو يعود الطبق بالخبز كما كان، وفي نهاية المساء نأكل أنا وعاطف الرغيفين.

صاحبة المخبز سألت في دهشة: هل تبيعون الساندوتشات؟

وحلاً للمشكلة قلنا: نعم.

أرسلنا لها عيسى لشراء ثلاثة أرغفة «تريا أبسولي».

الخبز في اليونان «أبسومي»، وقضيب الذكر «أبسولي».

ظل الشيخ عيسى يردد: «تريا أبسولى.. تريا أبسولي».. على طريقة ألفية ابن مالك،

ودخل الفرن.

ابنة صاحبة المخبز عمرها أربعة عشر عاماً، زهرة جميلة، تتصدر المبيعات.

قال لها: «تريا أبسولي».

فاحمرت.

أعاد الطلب، فوضعت وجهها في الأرض وصرخت على أختها.

حضرت الكبرى، وكانت سبعة عشر عاماً، ولما سمعت صرخت: «ماااامي».

خرجت أمهما بمريول الفرن مهرولة.

بدأ عيسى يرتبك، ويعيد ما قال: «تريا أبسولى».

قالت الأم: نعم؟

قال: «تريا أبسولي أبسولي».

وأشار ناحية الأرفف المصفوف عليها الخبز في أكياس.

صاحت الأم: أبسووووومي.

«كالو بيزي».. شاب طيب.

وضحكت، وأفهمت البنتين، أن من الواضح أنه لا يفهم.

وأعطته الخبز.

******

زارتنا أورانيا، في حفل خطوبة ابنة خالتها، المقام في مطعمنا.

إيلين نصحتني عدة مرات بأن أكلمها، وكانت تقف أمامي بالساعات بالمايوه، تؤدي حركات الجمباز الإيقاعية التي تعلمتها في المدرسة، وتنظر ناحية المطعم، تحدثت معها قليلاً، وعندما غابت جدتها وأمها، وقفت على عتبة بيتها واحتضنتها، وقبلتها فغابت عن الوعي، طفلة كانت، ومازال مذاق شفتيها ورائحة أنفها وأنفاسها، يغرقني.

حضرت مع المدعوات، بفستان سواريه، ظهرها عار، ويداها وكتفاها، ونهداها عناقيد من النور،تنظر نحوي مسحورة، وأنا أدير المطعم وأقدم الطلبات، سألتها: «الآنسة هل تريد شيئاً؟».

قالت: «بيرة».

سمعت جدتها، وضحكت، وقالت: «نعم أحضر لها بيرة يا يني».

الأسر اليونانية تعوّد الفتيات على الشرب قليلاً قليلاً مع العائلة.

البيرة أمامها، وبدأت تشرب، وخططت أن أختطفها بأي عذر؛ لنتبادل القبلات في متاهات المطعم، كأساً وكأسين، وبدأت تنظر نحوي، حاولت أن أتوارى، وعيناها تتتبعانني، وتشرب، تجرعت الزجاجة، وبدأت ترسل نحوي قبلات في الهواء.

هتفت جدتها: «يني ساعدني من فضلك لنوصلها للبيت».

حملناها شبه نائمة، وهي تقبّلني في الأحلام.

رحلت أورانيا إلى المدرسة الداخلية، لم أتزوجها، كنت خائفاً من مشكلات الديانة، والغربة، وعدم استكمال الدراسة، ورحلت دون أن أودعها.

-١٧-

فنادق الهوليداي إن والكارافيل والهيلتون، تصطف في وداعة بين هدوء الميادين الواسعة، والحدائق.

ومن بعيد تلمع اللافتة الزجاجية العملاقة:

المطعم العربي.

قطرات من المياه ترتعش بانتظام على لوح زجاج عملاق عند بوابة مدخل المطعم، وتتخلل بعض النباتات الخضراء، ورذاذ الماء ينفخ الندى البارد في حر أغسطس.

وفي الداخل كان صموئيل ينتظر..

تعارك صموئيل مع مانولي في مطعم بلاكا، وأصبحت كبير الجرسونات هناك.

واختفى صموئيل يومين.

قال إن هناك مطعماً فاخراً نشر إعلاناً يطلب جرسوناً يُجيد العربية واليونانية والإنجليزية، وعاد ليطلب أن أعمل معه.

المطعم العربي أربع خيام ملونة: فوشيا وزرقاء وسيمون وخضراء، وبار مصفوف بأنواع الخمور.

على حوائط الخيام ترقص ثعابين الشيشة الملونة، والزبون المسترخي، يلتقط النارجيلة، من أحد المباسم، والخرطوم الطويل يرتفع بالأنابيب، وهناك من يقوم بتبديل التومباك والنارجيلة والمياه ونار الفحم في الدور الثاني.

هتف صموئيل: تعالَ بسرعة، كانت ساعة ذروة الغداء، عندما يهجم عرب الخليج من الفنادق الثلاثة على المطعم.

العرب متدينون يسألون عن مواقيت الصلاة واتجاه القبلة ويفضلون الخرفان المذبوحة إسلامياً في المطعم العربي والدجاج والحمام مع كأس من الويسكي.

تأنق عصام الجرسون وصف طاولة وكراسي عند مدخل المطعم واسترخى شخص مهم مع مجموعة أصدقاء، وكان الجميع يمرون من جواره في حذر. وتطلع نحوي قائلاً: «من فضلك كوب من الشاي».

لم يكن هذا وقته، ودخلت البار، والأطباق والطلبات تطير، وأعددت شاياً سريعاً على الطريقة الصعيدية، غلت المياه وكمرت الشاي والنعناع والسكر، وأطفأت النار.

بعد عشر دقائق قال مبتسماً: منين؟.

قلت: صعيدي.

قال ضاحكاً: واضح، من فضلك شاي صعيدي تاني.

رجعت لصموئيل وقلت: هذا الرجل يعرفني؟.

ضحك قائلاً: طبعاً.. وأنت تعرفه.

وسط الزحام والعمل والذهاب من أمام توفيق بك والأستاذ توفيق تذكرت.

توفيق عبدالحي.

المليونير الهارب، صفقات الدجاج الفاسد وصورته في الأهرام.

في المساء وقفت أمامه، قال: صموئيل جرسون مدرب، ووقع في مشاكل مع الآخرين، ولذلك طلب أن تعمل معه، وتغلقا على أنفسكم خدمة خيمة، ومن الواضح أن صموئيل كان عنده حق.

وطلب أن أتسلم العمل من غد.

كنت أعمل في المطعم اليوناني حراً بالجينز والتي شيرت، فقال توفيق: نحن هنا نحافظ على القميص الأبيض والكرافت.

******

طباخ المطعم عم فراج النوبي، طباخ فندق فلسطين بالإسكندرية، كان جميلاً، ومتزوجاً من بيضاء سمينة، لا تتوقف عن الضحك.

من الساعات الأولى أحبني، كنت معتاداً على العمل الجماعي من المطعم اليوناني، أطلب الطلب وأدخل؛ لأشاركه، بتسهيل الأطباق وتجهيز السلطات، وترتيب سلال الخبز، وبقية الجرسونات، ينتظرون أن يصلهم المطلوب.

نشوي يومياً ثلاثة خراف بالمكسرات والزبيب.

بعد شهر، عقد توفيق اجتماعاً مع كل العمال، قال إن الوجبات حسب قانون العمل، يومان لحم، ويومان دجاج، ويوم سمك، ويومان عدس وفاصوليا، وطعام العمال سيقدمه عم فراج ولا أحد سواه.

والمسموح من المشروبات زجاجة مشروب سوفت واحدة وممنوع الكحوليات.

العمّال نزحوا البار، زجاجات الويسكي والنبيذ الفاخر اختفت.

صاروا خبراء في متع أصحاب الملايين، ويمزقون الخروف، لطعامهم، قبل أن يأكل الزبائن.

آخر المساء حدث تمرد، وكان صموئيل غاضباً، واستدعانا توفيق، وقال إن هذا الكلام لا يقصدنا على الإطلاق.

أحمد الجرسون بالخيمة المجاورة، أصلع نحيف جداً، كان راقصاً في فرقة رضا، يعاشر فتاة يونانية وفقاً لقواعد ثابتة، ألا تتزوجه، ولا تطلب شيئاً، يشتاق أحياناً، فيضع شريطاً في كاسيت المطعم، وتنساب ألحان علي إسماعيل.

يحكي أحمد عن أيام التدريب في معهد الباليه، والقسوة في الرياضة حرصاً على الوزن؛ حتى أصبح كسلك كهرباء غير قابل للزيادة.

لا يعرف عن أبيه شيئاً، وبين الحين والآخر يتسقط أخبار مصر، ويهز رأسه ويكرر أنه لا يريد أن يعرف عنها شيئاً.

تاجر في السيارات، يشتريها من ألمانيا، ويقودها لليونان ويبيعها ويكسب.

وفي الشبورة والضباب طار عالياً وتداخلت الصور.

قطعوا نصف أمعائه، وتعرض لجراحة دقيقة للمخ، وترك السيارات ونزل على الأرض.

عصام الجرسون الآخر قريب المدام فاتن الأشوح، زوجة توفيق، سكندري قصير، أبيض ومتأنق لأقصى درجة، وشعره يلمع، ويعترض على كل كبيرة وصغيرة باعتباره الخبير الأوحد في فن الإتيكيت.

دخل البار بحثاً عن أكواب، وكنت أنظفها لأحصل على مجموعة منها على صينية لتشغيل خيمتنا، فقال: «بسرعة..بسرعة .. جهز لي صينية».

كان على كل جرسون أن ينظّف أكوابه بنفسه، فقلت: «يا عصام ما تجيب بوسة؟».

كان الضوء في البار خافتاً، وأحمد الجرسون يمر خلفنا، واحمر وجه عصام وصرخ: «مش ممكن الناس دول منين؟».

آخر المساء استدعاني توفيق عبد الحي ضاحكا وقال: «ماذا قلت لعصام؟».

******

زبون بملامح شرقية، ظل لأسبوع يرتاد المكان، ويقعد في خيمتي بالتحديد، وكنت أداعبه، وكان مكتئباً ووحيداً دائماً.

بعد سداد الحساب والبقشيش، قال: "أريدك" كانت الخامسة عصراً، قال إنه سيسافر بعد ساعات ولن يراني مرة أخرى، وأنه طلبني ليقول لي ذلك، وأنه سعيد بمعرفتي، وأنه كان يأكل عندنا؛ لأنه يعاف أكل الخنازير، وقال إنه إسرائيلي، وشعر أن من العار أن يخفي ذلك عني، لإنه لا يشعر بالعداء تجاهي، قال: أنا أحبك وأشعر بالإحباط لأننا أعداء على الخريطة، وقال إنه سيرحل، لكنه يرجو أن أتذكره بالخير.

تشيلدا مضيفة الطيران الألمانية، في الأربعينيات، تقيم بمطعمنا، قميصها الأبيض مفتوح دائماً عن حمالة ثديين حمراء، يقفز من داخلها ثديان ممتلئان، وتنورها الأزرق قصير ومشقوق من الخلف، والأولاد يضاجعونها، تحب بلاد الشمس، وهاربة من برودة الألمان.

******

في آحاد الشتاء، والمطر والثلج، يلوح دفء سوق مونستراكي، بأسقفه المغطاة ودكاكينه الضيقة.

هنا يباع كل قديم وجديد ومستعمل.

والأسعار مذهلة، بعشر دراخمات: بنطال، أو قميص، هذا غير التحف والهدايا،

شورتات للبحر، وبدل جديدة، وفساتين، بالأكوام، يفتحها المغامرون على الرصيف ويصرخون «إلا ذو» تعال هنا!

وفي الدكاكين تصطف الأحذية، وأقمشة الستائر الشهيرة، وأدوات المطبخ.

تلك البضاعة بلا عيوب تقريباً؛ لأنها بواقي المحلات تتخلص منها، قبل الموسم الجديد، والويل للدكاكين من الموضة الجديدة؛ بمجرد ظهور موضة جديدة في البنطلونات، كل كميات البنطلونات القديمة ستنزل لسوق مونستراكي.

كان سوقاً ممتعاً، من أول عيون البنات اللاتي يتجولن، مستمتعات بالتهام الساندويتشات والفطائر السريعة من الباعة الجائلين، وصولاً لخفة دم البائعين، وتنوع البضاعة المذهل، من معاطف فرو ثقيلة لمايوهات وملابس داخلية.

كثيراً ما شاهدنا نجوم الفن في بلادنا يتسكعون في مونستراكي للشراء، ولا يلتفت لهم أحد.

******

اشتريت لخالتي تولا عقداً بمائة دراخمة، بلون الفيروز، وسواراً إفريقياً من العاج بخمسين دراخمة لسولا، ورجعت في الخامسة؛ لأجدهم في الحديقة، وقلت لهما إن الشرع في بلادنا يسمح للرجل بالزواج من أربع، ولهذا - وقتلت شاربي - سأتزوج منهما فوراً، وصفقت خالتي تولا ضاحكة للفكرة، بعد أن طوقت عنقها بالعقد، وقبلتني في خدودي، وصبت من أجلي الشاي، وجلست سولا تتأمل جمال السوار.

قالت سولا في المساء إنها لم تمارس الجنس أبداً، وقلت لها إن هذا غير مهم لأنها مازالت صغيرة.

وقالت إن البنات في المدرسة يتحدثن عن مغامراتهن مع أقاربهن وأولاد الشارع، وإنها ذهبت معهن لحديقة لمقابلة بعض الشباب، لكنها تذكرت جدتها وهربت، وضحكن عليها.

قلت: ذلك أيضاً لا يهم؛ لأنك أجمل منهن جميعاً.

قالت: وهل الرجل يحب البنت الخجول، التي بلا تجارب، قلت: في بلادنا يعشقونها بجنون.

قالت: البنات يقلن إن الرجل اليوناني لا بد أن يمارس الجنس مع محبوبته قبل الزواج، لكنني لا أريد توريط جدتي في مشاكل.

ماتت أم سولا، وغاب أبوها، وعاشت مع كيريا أناماريا جدتها؛ لترعاها.

عند الباب قلت لها: هل تصدقيني؟

قالت: نعم.

قلت: أنت أجمل بنات أثينا.

قالت: وأنت أجمل رجل في العالم.

وقبلتني في خدي، وهرولت تغني صاعدة على السلم الخشب، ولوّحت جدتها من الشباك.

-١٩-

زار المطعم العربي رمضان المسيحي.

لا أعرف كيف عرف العنوان؟

كان معه صديق.

قال: «رابح.. جزائري»، وغمز بعين.

سألته عن أحواله.

قال إنه هذه الأيام يضحك على المسيحيين، يعرف أنهم يراقبونه، ويقابلهم بعلامة التثليث، لكنه يصلي ويقرأ القرآن، بمجرد أن يغلق الباب.

كان من الواضح أن رابح الجالس معنا لا يفهم من كلامنا إلا الأسماء.

وأن رمضان صار ضليعاً في الإيمان.

رابح، يُجيد الفرنسية واليونانية.

مولود في أوروبا ، لكنه مسلم، ولا يريد أن يكون على ديانة أعداء الإسلام.

هكذا قال رمضان، وانتفض رابح عند سماع اسمه، واستخرج من جيبه كتاباً، وقبّله، ووضعه على رأسه، توقعت أن يكون مصحفاً، لكنه لم يكن مكتوباً باللغة العربية.

قال إنه يريد أن يتعلم الإسلام.

وابتسم رمضان منتصراً؛ لأنه سيدافع عن المسلمين.

وكان من الواضح أن رابح لا يعرف أن رمضان مسيحي.

وقال رابح أريد أن أعرف كيف أكون مسلماً من وجهة نظر اللّه ونبيه محمد صلوات اللّه وسلامه عليه.

كتبت ثلاث آيات من قصار السور، والفاتحة، ولخصت خطوات الوضوء، والصلاة.

تابع ما أكتب باهتمام، وقال هذا أفضل، واستخرج من جيبه الكتاب مرة أخرى، وقبله قائلاً: «أنا مسلم والقرآن الكريم».

وقال رمضان أريد نسخة مما كتبت.

رابح قرأ النسخة وقال: هذا الكلام المكتوب بالعربية، من المصحف والقرآن، وقبّله، ووضعه على عينيه، لكنني لا أقرأ العربية ،أريده بالفرنسية أو اليونانية.

نظرت نحو رمضان وقلت: لا أعرف كيف أترجمه.

قال رابح: لا.. لا تترجم، أريد أن أعرف كيف أنطق الكلمات بالعربية، فأنطقها وأكتبها بالحروف الإنجليزية، أو اكتبها أنت بالإنجليزية، الوضوء فقط يمكنك شرحه بالإشارة، وسأكتب الخطوات.

بعد يومين حضر رابح مع رمضان، وحصل على الورقة المترجمة ودسها في جيبه.

في فترة الاستراحة خرجت معهم، وبدأت أشرح لرابح فرائض الطهارة والوضوء، وكان يسأل عن التفاصيل.

سأل ما أفضل موعد للتطهر والصلاة في السنة؟

قلت: ربما يوم وقفة عرفات.

لكن المسلم يجب أن يصلي خمس مرات يومياً، هذا غير النوافل.

قلت ذلك ولم يستوعب ما أقول، واستعاده عدة مرات.

قال إنه كان يعتقد أنه سيكتفي بإشارة إلى اللّه، كما يفعل المسيحيون، وينتهي الموضوع.

وسأل بإلحاح: كل يوم خمس مرات؟

قلت: نعم.

قال: أتوضأ خمس مرات، وبعدها أصلي خمس مرات.

قلت: نعم.

وكان واضحاً أنه تورط.

قال إن ذلك كثير جداً.

خرج وهو يردد: «كل يوم.. كل يوم؟».

سأل: هل يمكن أن أؤديها كلها مرة واحدة في الصباح؟

قلت: لا.. طبعاً.

قال ليس معقولاً أن أصحو من الفجر، وأظل أصلي طوال اليوم، أكيد هناك نسخة مختصرة لكنك لا تعرفها.

أنت عالم بالإسلام؟ـ

قلت: لا..لكن ذلك الحد الأدنى.

لم يكن رمضان مقتنعاً، ولكزني غاضباً:

«يا عم إديله أي حاجة خفيفة.

بقى أنا أجيب لك الراجل يدخل الإسلام تخرَجه من الإسلام؟».

-٢٠-

أقام توفيق عبدالحي حفلاً فاخراً.

في المساء توافد على المطعم مئات الفلسطينيين، معظمهم من الجرحى، عقب اجتياح إسرائيل لبنان.

وغنت فيروز على الجبل لصالح فلسطين.

وحضر نادر شقيق توفيق، صول مدرب صواريخ بالجيش، سافر لروسيا، وأخرجه توفيق من الجيش، بعد الحرب، وصار من كبار تجار الأدوات الصحية، ولما هرب توفيق تطوع نادر ببيع سيارات شركة توفيق "أريك" وأثاثها ومحتويات المكاتب، وكانت كلها تحت الحراسة، وبعد الإبلاغ عنه هرب وانضم لشقيقه.

من الأيام الأولى لم تطق زوجة توفيق فاتن الأشوح شقيق زوجها نادر.

وبعد ثلاثة أشهر، طرد توفيق شقيقه، وزرته في البيت، وطلب خمسمائة دولار.

كان ينام بلا بطانية، وأعطاني خطاباً لزوجته في كفر الدوار، لأسترد المال.

كانت تسكن فيلا من دور واحد، وجاءت بجلباب، وقرأت الورقة، وقالت إن أشقاء نادر يسعون لطردها من البيت، وتعيش على مساعدات أبيها ومعها ثلاثة أطفال.

وانصرفت.

قالت: هل تريد الورقة؟

قلت: لا.

-٢١-

علي رصيف كافتيريا ميدان أمونيا، يطير الحمام، والجرسونة السمراء الدافئة ليلى، ترفرف بالميني جوب بلون الشاي بالحليب، والقميص الأبيض، أفريقية الجمال، عيناها السوداوان ورموشها الطوال تبارك الخلاق، ونهداها يرتجان بعنف، والجوب ينحسر عن مؤخرة وساقين سمراوين، يعجز عن مجاراتهما بنات أوروبا.

عاكستها كالمعتاد، وجاءت صائحة بوجهها البشوش: «إنت تاني؟».

قلت لها إنني سأحبها للأبد، وسأقرأ جريدة الأهرام، وأنصرف.

وأعطيتها وردة برية من جبل بلاكا، فابتسمت ووضعتها في عروة الجاكت.

******

تساقط الجليد، وراقصات الإستربتيز، في البار المجاور لمطعمنا، يحضرن لطلب طبق من حساء العدس، ويسألن عن الثمن، الحال من بعضه، كساد، والعرب لا يحضرون في فصل الشتاء، وبعد ولائم الصيف التي كان يسدد ثمنها شباب الخليج، قالت سنكا خفيفة الروح: أريد طبقاً من السلاطة اليونانية، وغمزت صديقتها جوليا بأنها معها، ووضعت أمامهم طبقين، وقلت: «الحساب طبق واحد ٥٠ دراخمة»، ومنحتها قبلة على الهواء.

على طاولات البار الحمراء، في آخر الليل، جلست لأحتسي زجاجة من البيرة، وسط خمس فتيات يستلقين على البار، بلا عمل.

خلعت لولا ملابسها الخارجية والداخلية السوداء قطعة قطعة، واستدارت لتداعب عاموداً معدنياً عند منتصف بقعة الضوء، ورفعت إحدى ساقيها، واستخرجت من حقيبتها الصغيرة زجاجة بيرة، ظلت تداعبها حتى أدخلتها فرجها كاملة؛ ليسدل الستار، على آخر العروض، وصفق الحاضرون، وكانوا ثلاثة.

******

لم أكن أسعد حالاً من فتيات البار، أعمل عند هارب، من أجل ألفي دولار، وأضعت عاماً دراسياً، ووسط البرد والكسل، زارنا زبائن، ثلاثة جلسوا للأكل، وأحدهم دخل منفرداً، وذهب لبار المطعم، وطلب كأساً، وضعته أمامه وانصرفت، فقد كان البار مهجوراً، ونسيت إشعال النور.

بعد قليل اعتذرت عن الضوء، ووضعت أمامه زجاجة نبيذ، كما طلب.

المطعم استغنى عن عامل البار في الشتاء توفيراً للنفقات، وأقوم بدوره إلى جانب عملي، وبادرني الجالس على البار قائلاً: زجاجتان بيرة.

«بيرة على نبيذ؟».. قلت في نفسي.

كان مازال بمفرده، وفتحت الاثنتين ووضعتهما أمامه، فقال: اجلس، أريد أن أتحدث معك.

أزاح إحدى الزجاجتين نحوي قائلاً: اشرب بيرة على حسابي.

وكنت ما أزال واقفاً.

كان يضع نظارة ظلالها سميكة، تخفي ملامح عينيه، ويرتدي بدلة من الصوف وكوفية.

سأل: مصري؟

قلت: نعم.

فقال: تعال لأقرأ لك الكف.

خبير الكفوف حضر في الخامسة عصراً، وقطع ساعة الراحة بين الفترتين الصباحية والمسائية، فقلت: أنا لا أؤمن بالطالع.

قال: أنا أعرفك، وأعرف عن صاحب المطعم أشياء أخرى.

قلت: أستأذنك.

بعد قليل رجعت للبار.

سأل: هل تريد العمل في الخليج؟

قلت: لا.

قال: «لييييش.. تشتغل هناك بين أهلك وإخوانك».

قلت في ضجر: لا أريد.

قال: كم راتبك هنا؟

قلت: أعمل مجاناً.

كان قد بدأ ينفعل، وبدا واضحاً أن وجهه يفتقد الوسامة.

قال: أنت تتعمد إهانتي، أنا عميد شرطة وأمير، واستخرج بطاقة من جيبه عليها صورته بسترة العسكري، فقلت أهلاً وسهلاً، لكن لا أريد أن يكفلني أحد.

في المساء حضر؛ ليقول لتوفيق عبد الحي إنني أهنته، وضحك توفيق وعرض أن أصالحه وأعتذر.

جاء ماركو عامل صيانة الكهرباء في بار الإستربتيز المجاور، قال إن الرجل خرج من عندنا، ودخل البار المجاور، فطلب لكل طاولة زجاجة من الويسكي، ثمنها راتبي في شهر.

ووضع على رأس كل بنت من البنات طوقاً من الدولارات، أما ليندا فقد وقع في هواها، ويطوّقها يومياً بعقود الدولارات، ولاحقه صاحب البار مجنوناً؛ ليحجز المنضدة الأولى، ويمنع الناس من الاقتراب منها، وبعدها أغلق البار، وصار يقدم العروض لشخص واحد فقط.

قال ماركو إن البنت المسكينة طيبة، وأهداها الأمير الطيب شقة تساوي نصف مليون دولار، قبل أن يرحل.

******

عم فراج لمحني أنصرف.

صاح: «تعال يا مجرم مش هتاكل؟».

قلت: «لاااا يا عم عدس وفاصوليا؟؟».

«طب بس تعال، وهات سرفيس».

أحضرت طبقاً ووقف أمام إناء ضخم، واغترف من العدس الأسود.

قلت: «إيه دااا ياعم؟».

قال: «اصبر».

وسحب شوكة غرسها في بطن الدست، وأخرجها تنزلق منها الكوارع.

نصف عجل كان يصلنا يومياً في الصيف، وتراكمت المقادم.

رتبت طبقاً من الباذ نجان والطرشي، وزجاجة بيرة؛ لألتهم طبق الكوارع بالعدس الأسود، ومن جماله طلبت طبقاً آخر إضافياً، لم آكل الكوارع التي أعشقها منذ عام.

******

زارنا جرسون جديد، طالب بكلية الهندسة، وتسربت معلومة بأنه – جورج كان مسلما، وفي اليوم التالي خرج ولم يعد، وقال أحمد.

زمان أحبت بنت في زمن المماليك رجلاً مسيحياً، وجلدوهما معاً؛ لتتراجع، لكنها أصرت على حبها، وعندما أغرقوهما في النهر، كان كلاهما يحتضن الآخر.

لماذا يعتبر المسلمون أن دينهم بوابة من يدخل فيها لا يخرج منها؟

الدين حرية.

قال عصام: المسلمون الهمج هم أصحاب الديانة الوحيدة التي حافظت على أصحاب الديانات الأخرى كاليهود والمسيحيين، وأوصت بحسن

التعامل معهم، حدث هذا بينما كانت المذابح في أسبانيا على أشدها عقب انحسار الجيوش العربية بالاحتلال التركي، وأجبروا السكان الموريسكيين بمحاكم التفتيش والإعدام على التنصّر.

الحكام العرب المسلمون كانوا قادرين على أن يفعلوها، و يحدث تطهير عرقي في المنطقة العربية، على الأقل، وقوتهم كانت تسمح، لكن دينهم يمنعهم.

قال أحمد: حدث هذا التطهير العرقي ، أين نصارى نجران، ويهود خيبر والمدينة؟ هل تبخروا؟.أجبروهم على الهجرة أو أسلموا بحد السيف، ومعظم الموجودين في مصر من المسلمين من أصول مهاجرة مغاربة وسودانيين وشوام ومن الحجاز، وطغوا على المسيحيين أصحاب البلد.

عم فراج: "أنت بتقول كلام فارغ، أنا نوبي وجدي اسمه بطرس، النوبيون كلهم بلا استثناء كانوا نصارى، وهم من السكان الأصليين، وكلهم دخلوا الإسلام مرة واحدة، ولن تجد نوبياً مسيحياً، حدث هذا في وقت متأخر جداً في أيام صلاح الدين، هؤلاء دليل واضح أن الأغلبية المسلمة من المصريين نصارى آمنوا بالإسلام."

سيد: ولاحظ أن النسطوريين الذين لم يؤمنوا بالتثليث، وكانوا مسيحيين يؤمنون بالتوحيد، هؤلاء جميعاً دخلوا الإسلام لاختلافهم مع الكنائس الأخرى.

قال عصام :عموماً إحنا طردناه ابن الكلب الوسخ.

«هي هي هي... الأستاذ توفيق أول ما دخل قال: شغلوا لنا قرآن، عشان يفهم».

قال أحمد: "ما إحنا ها نفضل متخلفين، مفروض ما حدش يسأل حد على حكاية الدين دي خالص."

عم فراج: «يـا عم ده واد دنيء ضحك على البنت الكوافيرة اليونانية في ميدان أمونيا ونهب فلوسها بحكاية التنصير دي ».

أحمد: «العيال دي كترت.

وهو ده يقدر يرجع مصر؟

لا يا عم ده المباحث هناك يسحلووه».

«يا عم هم اللي هناك دريانين؟.

مـا عمـك توفيق أهـو قدامنا وبنقعـد معـاه كل يوم وتفتـح الأهرام كاتبـين لك إن مصر تبحث عنه في كل مكان والإنتربول.. وكل يوم السفارة المصرية بتاكل عندنا بالكامل»

«لاااا.. والأدهـى توفيـق كل يومـين يقعـد يكلـم عثمـان أحمـد عثمان..وعارفين مكانه كويس... وجواز السـفر بيروح السفارة ويرجع مختوم ومتجدد».

«ولا نكتـة الأهرام، من يومين نشـروا تحقيقاً عـن قصص النجاح في الخـارج، وكانـت الحلقة عن اليونـان، اسـتضافوا ٨ نماذج ناجحـة، منهم أربعـة اتنصروا، ومنهـم طبعاً حبيبك جورج، ونشـروا صورته، وأنه كافح وغسـل أطباقاً، لغاية ما افتتح كوافير حريمـي في أهم ميادين أثينا، وهو سرق البنت الغلبانة وضحك عليها».

«الأزهر فين؟».

أحمـد :« في مصر العيال بالذقون يكبَروا لأن واحد مسـيحي أسـلم، وهنا بيهللوا عشان مسلم اتنصر، والاتنين أولاد كلب "

-٢٢-

للعيد الكبير أجازة رسمية ثلاثة أيام من المصنع والمطعم، ٧٢ ساعة من الحرية وقالت سولا :نسافر.

ارتحلنا في الفجر والجو صحو والبيوت نائمة، نتجول ونغني في شوارع شبه خالية،سألتها: ولماذا اخترت هذه القرية بالتحديد؟

كنا تحت جدار،في طريقنا لأقرب كافتيريا بميدان القرية الوحيد، ولم أكمل السؤال عندماسقط فوقنا طحين بكميات أغرقتنا في تراب أبيض،نظرت لأعلى صارخا ومحتجا ،فلم يجاوبني سوى ضحكات.

وقفنا بالقرب من مقاعد المقهى ننفض أنفسنا ،ومرقت بجوارنا سيارة مكشوفة ،كل وجوه أصحابها زرقاء وحمراء وصفراء،وعند محاذاتنا قذف هؤلاء في وجوهنا بقنابل لطختنا بالألوان.

كان من الواضح أن كل سكان القرية مجانين.

قلت لسولا : لنرحل.

نظرت نحوي مرتبكة بشعرها الغارق في التراب،والحبر الأحمر والازرق يلطخ قميصها وسروالها،

من الشوارع الجانبية جاءت مجموعات ،كانوا مثلنا غارقين في الدقيق والألوان،والأولاد والبنات يتبادلون القبلات،ويرفعون العصي والفؤوس والبنادق ويتقدمون نحونا.

صرخت سولا، ووقفت خلف ظهري تحت الجدار، فسقط فوقنا من جديد الطحين ،كان واضحا أننا سنهاجم من كل مكان، وتقدمت الجموع،اقترب أحدهم من سولا، خلعت عصا مظلة المقهى من الأرض واندفعت نحوه فجرى هاربا ،وبعدها أصبح الجميع يضحكون ويشيرون

نحوي،ووجدتني ألهث خلف كل هؤلاء كلما اقترب أحدهم من سولا.

أحاطوني بالعشرات ،وتعثرت مع عصاي بالرصيف، وهجموا على سولا .. فصرخت : لا تخف ، لكنهم أغلقوا فمها وحملوها بعيدا.

في عامود نور بوسط الميدان، قضيت ساعتين، مقيدا وأصحاب الوجوه الملونة يتشممون رائحتي ويصرخون ويضربون صدورهم ،بعضهم على رأسه قرون كبش ،أو رأس أسد، ويبصقون على الأرض غضبا عند رؤيتي.

كانوا يزحفون وتتزايد أعدادهم في كل الميدان، أحدهم يمص ساق الآخر، أو يثبت جناحين و يحاول الطيران في الهواء،وفتاة تجردت من ملابسها فكستها الأخرى بالألوان ، وآخر يعزف على أكورديون ممزق لحنا لا يسمعه أحد سواه وهؤلاء الذين يرقصون ويتبادلون القبلات على نغماته ويتجرعون الخمور بكل أنواعها ،وبعضهم مستغرق لأقصى درجة في تقبيل فتاته، أو فتل شاربه طويلا طويلا ليسقط على الأرض .

لم أكن نائما،وكنت خائفا.

إحداهن جاءت من خلف ظهر الجميع،كان قميصي ممزقا،ويداي خلف ظهري ،جميلة بشورت قصير ونهدان ولا أحلى،نظرت نحوي، وطبعت قبلة ناعمة على خدي ..

أحضرت خلسة سكين، وفكت وثاقي..واحتضنتني..

قلت لها : أريد سولا .. أشارت لحارة ضيقة.. ورمت فوقي ثوبا يخفي ملامحي ومن بين المخمورين في الميدان ، وجدتها هناك نائمة ، رفعتها على ظهري ودخلت أحد البيوت.. ووسدتها الأرض وأغلقت الباب ووقفت مع من أنقذتني لأراقب ما يحدث.

قالت إنها لا تمانع أن أقبلها،واقتربت بشفتيها من وجهي ، كانت يداي على خصرها الجميل، مسحت جبينها من التراب وقلت لها : إنني خائف وأريد

النجاة بأختي سولا فقالت عابثة في إغراء: لن أساعدك إلا إذا قبلتني الآن.

بيننا الظلام،وروائح الطحين وصرخات الجنون في الخارج وأصوات الموسيقى والألوان ،وأراحت يديها فوق كتفي، وارتعشت من دفءنهديها .

زعق صوت بوق طويل ،وانفجر الميدان بالأصوات والرقص والغناء والفرح، ونظرت أنا وهي من خصاص النافذة ،وأهلّ الناس من كل مكان ،ووقف بعضهم تحت نافذتنا ليشير بأن ننزل .

قبلتني صديقتنا المجهولة قبلة طويلة وخرجت هاربة.

وكانت سولا .. قد استيقظت .. وتضحك.

احتضنتني بشدة...

قالت إن كل هذا تمثيل وأن اليوم عيد الدقيق، عيد استقلال القرية وتدمير الأعداء ، تمهيدا للاثنين النظيف، لتطير الطائرات الورقية ويبدأ الصوم الكبير.

عيد وثني اختلط بالمسيحية، يطلق عليه باللغة اليونانية "كاثاري ذفتارا"

والأولاد والشبان والصبايا يهربون للهضاب والوديان والحدائق والهواء الطلق لإحياء تقاليد بدء الصيام الكبير، وإطلاق العنان للموسيقى والأغاني والرقص والمرح وتذوق خبز "لاغانا" و"الكبيس" والحلاوة وثمار البحر والقريدس والكلماري، وترتفع طائرات الورق في الفضاء ، لاستقبال فصل الربيع.

قالت سولا إنها لا تصدق أن هناك شخصا يمكن أن يموت من أجلها و يحملها ويغلق عليها الباب ويستعد للدفاع عنها بالسلاح ضد قرية بأكلمها.

من كيسها الصغير استخرجت دبوسا ،وأمسكت يدي قالت: "لا تتألم" ووخزت إبهامي ووخزت إبهامها . ووضعت دماءها على دمي.

قالت : تلك عادة وثنية، لكن المسيح لن يغضب لأنني أحبك.

رقصنا حتى الصباح .

ورجعنا إلى أثينا في آخر أتوبيس غارقين في الدقيق والألوان.

وهي نائمة على كتفي.

-٢٣-

تمنيت أن يغرق المركب قبل أن يصل اليونان.

على باب المطعم مر اثنان من الشباب المصريين يحملان حقائب، لا يعرفان أحداً في أثينا، ولم يكن لديهما سوى ورقة بداخلها اسمي، ويسألان عن عنواني، قالا إن صديقي نبيل أعطاهم الورقة، وسيمر على ميلانو بالباخرة، وبعدها ينزل في أثينا، وأنهما تقابلا معه في ميناء الإسكندرية، أدخلت حقائبهما، وبعد الإغلاق أسكنتهما في إحدى الشقق.

نبيل عبدالعظيم بطل الماراثون، منافس محمود العلواني ، كالنعامة ساقاه لا تحملانه، يعدو في التدريب خمسين كيلومتراً، تنقص وزنه ٧ كيلو جرامات، ويعود عاجزاً عن الابتلاع والمضغ، ويشرب بحاراً من: اللبن، الما نجو، الكركديه، العسل، وفي اليوم التالي يأكل حتى ذراعك.

كنا في مدينتنا البعيدة قبل المنافسات نتجمع في معسكرات للتدريب، ونتقابل في مطعم الحاتي أكثر من ٣٠٠ لاعب للأثقال والطائرة والكرة وتنس الطاولة وألعاب القوى وكرة اليد، ويقف بلبل ليطلب من كل هؤلاء الثيران: لا تلقوا أي بقايا زائدة، وكان يأكل كل الباقي من اللحوم والفاكهة والخضراوات.

وفي المساء نقف معاً؛ لنشتري ٢٥ رغيف فينو وثلاثة أرطال لبن غير البيض والجبن واللانشون وعلى حصيرة النادي يأكلها وينام جائعاً.

ووزنه لا يزيد على ٥٠ كيلوجراماً.

«إنت سافل يا بلبل».. هكذا كنت أداعبه دائماً، وكان يضحك مطرقاً ولا يرد، كان مؤدباً لدرجة زائدة ومن أسرة متدينة، ويلعب معنا الشطرنج ولا يشتم أحداً.

عندما عرفت أن نبيل سيصل قلت: نهار أسود نبيل في اليونان؟

أسكنته مع سيد العربي، سمين وضخم الجثة، ويتقلد سلسلة ذهب، ويبحث عن زميل في السكن، جيزاوي من «الخرتية»، الذين يستوقفون الأجانب؛ ليعرضوا عليهم خدماتهم وأوصيته على نبيل.

وأخذت بلبل ليتفرج على أثينا وشوارعها ومتنزهاتها، وتناولنا سندويتشات، ودلفت معه لإحدى العمارات، ودخلت إحدى الشقق المفتوحة؛ لنستلقي على طاقم للجلوس فخم، وسأل: ما هذا؟ قلت: السنترال.

غرق داخل دفء الكرسي منشرحاً: «ياسلاااام».

وبدأ يعقد مقارنات بين السنترالات في مصر وزحامها وسخافاتها والتليفونات الخربة.

خرجت امرأة عجوز توقفت أمامي، وقالت كلمات، وقلت موافق.

سأل بلبل المعجب بإجادتي لليونانية: «ماذا تريد؟»، وقلت إنها ستحضر التليفون.

بعد ثوانٍ خرجت فتاة مراهقة فاتنة الجمال عارية كما ولدتها أمها وظلت تدور أمامنا.

دنوت منها، واحتضنتها، وقلت لها إنها جميلة جداً، وتحسستها، وقلت إننا سنعود عقب العمل.

أما بلبل فقد تسمّر في الكرسي وهو يردد: يا مجرم... يا مجرم.

واصطحبته للخارج وانفجرنا من الضحك.

******

يوم الخريستوينا خرجنا جميعاً في برد يناير، وكل واحد يرفع شمعة، عليها غطاء من البلاستيك، وتطوعت بتوفير الغطاء للشمع من مصنع البلاستيك، كانت الكنائس كلها تخرج واحدة وراء الأخرى، ترفع تابوتاً يرمز للمسيح، للصعود نحو الكنيسة المعلقة، وبوصولها

جميعاً يبدأ العيد.

اليونانيون في ليلة رأس السنة والأعياد يكسرون الأطباق، ويلعبون الورق لاختبار حظ العام الجديد، ويلقون بالأكواب والأواني من النوافذ و يحتسون الأوزو ويرقصون حتى الصباح.

******

آخر المساء عجوز تقف على المحطة تنتظر الأتوبيس، وفي نهايات الليل يطول الانتظار، فستانها فقير وحجمها ضئيل، ولا تتوقف عن الحركة.

تسأل كل الواقفين على المحطة لتقطع الوقت.

سألتني: من أين أنت؟

قلت: مصر.

ظلت تروح وتجيء، وتسألني ماذا تعمل؟ وأين تقيم؟ وهل سيتأخر الأتوبيس؟

كان الحوار مملاً.

ولما سألتني: لماذا تبدو مرهقاً قلت: لأنني أعمل كثيراً، لأتزوج.

جاءت في اليوم التالي مهرولة، وسألت إنت مسلم؟

قلت: نعم.

قالت: وستتزوج؟

قلت: نعم قالت :ولماذا ترهق نفسك لهذه الدرجة؟

فقلت لأنني متزوج من ٦٣ امرأة بينما شقيقي متزوج من ٢١٣ امرأة وهذا ليس عدلاً.

تركت كل الواقفين على المحطة.

٦٣ امرأة؟

وأقول: نعم، فتختبئ في ركن؛ لتشير بعلامات الصليب، وتعود لتسأل: أين يسكن؟ وأقول: في بيتي، وهل بيتك ٦٣ طابقاً؟ وأقول: لا.. إنها غرف مكتوب عليها واحد اثنان ثلاثة.. وهكذا.

تهمس لجارتها بقصتي وتحضر مهرولة، وهل تنام معهن جميعاً؟

قلت: نعم.

ـ وعندك أطفال؟ وكم عددهم؟

لا أتذكر ربما ١٣٥.

ـ وهل تعرف أسماءهم؟

ليس ضرورياً.

سألتها: وأنت هل عندك أولاد؟

قالت: بنت وحيدة، قلت: جميلة؟

قالت: جداً.

قلت لماذا لا تزوجيني ابنتك؟ فابتعدت خائفة.

شاهدتني مبتسماً وسعيداً.

قلت لها اليوم تزوجت ثلاثة.

قالت: واووو سافرت مصر؟

قلت: لا تزوجتهم وأنا هنا.

قالت: وماذا يفعلن الآن؟

قلت: زوجاتي القدامى يجهزنهن بالاستحمام والعطور والتدريب حتى أرجع.

-٢٤-

بيوت الدعـارة في أثينا درجات، بعضها فنادق فاخرة في باليو فاليرون، أويعرض خدمات عبر كاتالوجات بأسعار خيالية.

البيوت الشعبية، أغلبها يتناثر على الجانبين في شارع بيريوس، بيوت غالباً من دور واحد، يميزها مصباح مضيئ أحمر أو أزرق أو أصفر.

كانت تلك البيوت نزهة طلاب الثانوي والإعدادي.

يقصد البيت تلاميذ فصل بالكامل.

أغلب البيوت سـلالمها خشـبية، ويدقـون على السـلالم بأقدامهم أثناء صعودهم: طاخ طاخ طاخ.

تخـرج العجـوز للتفاهـم معهم، وتصـر مجموعـة الفصل علـى رؤية الفتاة، ويتشـنج أحدهم ممسكاً ما تحت بطنه معلناً أنه يريدها الآن، ولا يستطيع الانتظار.

بمجرد خروجها تمتد أيديهم على جسـمها، وترتفـع الصفافير إعجاباً بجمالها،

وفي ثانية تصدر إشارة سرية، ويندفعون جميعاً هاربين على السلم.

لو كانت البنت قبيحة، يا ويل العجوز.

يشتمونها عند النزول على السلم بأقبح الألفاظ.

ويندفعون ضاحكين للمرور على بيت آخر.

******

وكنت مدمناً لبيت آخر.

كان على ما أعتقد أحقر بيت دعارة في أثينا.

بيوت الهوى عادة مكيفة ومجهزة بأثاث فاخر.

إلا هذا البيت.

من الباب، تصطدم بحبل غسيل (منشر) تعلقت عليه ملابس داخلية.

وفي وسط الصالة العارية موقد فتايل، فوقه طنجرة يغلي بداخلها طبخ وبقايا بصل وأطباق.

مومس البيت تعمل بمفردها بلا عجوز، لأنها عجوز أصلاً، وكرشها يتدلدل أمامها.

قبل أن تخرج ترد من وراء الأبواب لتوريط الزبون؛ ليدخل الغرفة،بأن البنت حلوة، وموافقة على مضاجعتها من الخلف والأمام وبأي طريقة كانت، ولوقت طويل.

والسعر مناسب ٥٠٠ دراخمة.

وكنت أعشق الذهاب لمناغشتها والهروب سريعاً، وتزداد المتعة عندما يداهمها سيل الطلاب؛ فأندس بينهم وأهرب معهم.

قبل أن أسافر عائداً لمصر، حرصت أن أودّعها.

جاوبتني من خلف الحائط على كل الأسئلة.

وكان لباسها الأخضر يتدلى علماً من السقف وعلى الأرض قطة نائمة وبعض الملابس المتسخة.

استمعت إليها طويلاً؛ حتى لم تترك لي حجة.

وأخيراً خرجت، لا ترتدي غير لباسها التحتاني الأحمر.

قصيرة وقريبة الشبه من البطيخة.

سألتها، هل تشترطين استخدام البلاستيك (الواقي الذكري) للحماية الصحية؟

قالت: نعم.

فقلت: أنا لا أستخدم البلاستيك.

وانصرفت خارجاً.

استوقفتني صائحة: من أين أنت؟

قلت: من مصر.

قالت: آآآآه مصري، من عند السادات وناصر، هؤلاء يستخدمون البلاستيك.

فقلت ضاحكاً: ولذلك ماتوا، وأنا لا أريد أن أموت.

وهرولت هارباً على السلم.

وهي تصيح بأنها موافقة بدون بلاستيك وستمنحني تخفيضاً.

******

اتصل بالمطعم العربي صديق قال إن بلبل يعاني من مشاكل مع سيد العربي ونصح بأن أزورهم.

وبعد يوم آخر قال: هناك مشكلة كبيرة.

شقة سيد العربي غرفتان.

وبمجرد أن رآني صرخ: «ضرررربني... هاتولي حقي».

رافعاً قدمه المكسورة لأعلى، ويطل من رأسه الملفوف بالشاش.

خرجت مع بلبل.

قال: سيد طيب، ومن فضل خيره وافق أن أسكن معه، وكنت أنظف الشقة وأعد الطعام وحدي حتى لا يغضب، وأقسم بالله كنت أحياناً أغسل ملابسه لأرضيه، لكن سيد لا يرضى، وبدأ يشتم، أنا قلت له: عيب كده يا سيد، وبعدها بدأ يضربني، يلكزني عندما أمر أمامه أو يصفعني، تحملت كل هذا، لكنه في الأيام الأخيرة بدأ يتحدث عن أمي، وبدأ يشتمها، أنا قلت له: «يا سيد أنت لا تعرفها»، فشخر وقال: «أكيد شرموطة».

أغلق بلبل باب الشقة، وألقى المفتاح من النافذة.

وأكمل سيد الممدد كجوال الخراء: «موّتني من الضرب... أنا عايز حقي».

رفسته، وطلبت من بلبل أن يحزم حقائبه، لينقلها عندي.

******

في المساء مر على المطعم رجل أعمال يوناني يبحث عن عامل، وذهبت لمقابلته أنا وبلبل، وبعربته انتقلنا خارج أثينا عند ناصية مرساة، وركبنا زورقاً، وأصبحنا في قلب جزيرة، لا أحد عليها، سوى بيت من طابق واحد.

قال إن المطلوب عامل لصناعة الطوب، فهل لديكما خبرة؟

قلت: لا.

فهز رأسه أسفاً.

قال: «سوف أعلّم من يعمل تجهيز المؤن وكيفية صبها في القالب».

قلت: «والحساب؟».

قال: «لا أتعامل بالأجر بل بالإنتاج الألف طوبة الأولى سعرها ألف دراخمة والألف الثانية سعرها ألف وخمسمائة دراخمة والثالثة ألفا دراخمة، قلت والخامسة؟ قال متهكماً: أعطي ثمنها ثلاثة آلاف دراخمة».

في اليوم التالي ذهب صاحب المصنع للجزيرة، كان قد ترك بلبل على ظهرها، مع الطعام والشراب، على أن يستيقظ فجراً للعمل، وفي الغروب سأله الأفنديكو (صاحب المصنع) عن حجم ما أنجز من العمل، ووقف بلبل مزهواً وهو يعد عشرة آلاف طوبة.

الأفنديكو قال إن بلبل سرق الطوب المخبأ في الجزيرة، وثار بلبل، وحاول أن يفهمه أن الطوب من إنتاجه، وفي النهاية اتفق الطرفان على حل عادل، أن يترك الأفنديكو بلبل على الجزيرة، وفي اليوم التالي، إذا كان بلبل صادقاً عليه بإنتاج عشرة آلاف طوبة أخرى.

ولما حضر كان بلبل وأمامه اثنتا عشرة ألف طوبة جديدة.

الأفنديكو - صاحب المصنع - صار يعمل عند بلبل،وبيت الجزيرة ملاذنا للعب كرة القدم وشي اللحم، ويحضر بلبل عندنا لمشاهدة كأس العالم، وينتظر الأفنديكو بالسيارة بالخارج، وعبثاً أحاول أن أقنعه بالدخول وهو يرفض، مؤكداً أنه في غاية السعادة، ويدير مسجل الموسيقى بالسيارة ويدخن مسترخياً، وكلما يمر أحدنا من أمامه يسأله: «بلبل سعيد؟».

-٢٥-

كل يوم وأنا عائد في البرد، أسلك طريق الترعة، لم تكن ترعة بالمعنى التقليدي، بل مصرف لمياه الأمطار من كل أثينا، وفي الشتاء تفيض من المطر والثلج.

علي حواف الترعة كراكيب أثينا، يلقون هنا بكل زائد من البيوت، والبعض الآخر يلتقطها إن كان يريد، يتخلص أحدهم من طاقم أنتريه، ويمر آخر ليلتقط من الطاقم كرسياً واحداً وطاولة، أو مرتبة.

الطريق الموازي للترعة، يبدو في الشتاء مهجوراً، وعند سقوط الثلج لا مكان للاختباء، وكنت أمر مضطراً، أمام عيون الفتيات اللاتي يتعرين داخل السيارات، مع الشباب، ويغمزن عند رؤيتي ضاحكات من المفاجأة.

بعضهن كن يفعلن ذلك علانية، و يحمل الشاب حبيبته لأعلى صخرة، و يخلعن لممارسة الجنس.

غابات بلاكا وجبل الأكروبول كانت مزدحمة بالعشاق.

والفتيات في أثينا نحيفات لو زادت الواحدة على ٦٠ كيلو ما تزوجت، وفقاً لتصنيف خالتي تولا.

معظمهن يشترطن على العريس قبل السيارة، مركباً صغيراً وموتوسيكلاً، الدراجة البخارية لاختراق الأشجار والنوم معاً في الغابة، والمركب الصغير للغياب في عرض البحر، والرقص وممارسة الحب.

العجائز متعهن أقل تكلفة، أمر يومياً على ماريو، في الدور الأول، وأراه عندما يصحو، يتحدث لإصيص الزرع، وزهرة وحيدة يرعاها بعناية.

******

استوقفتني سولا، عائداً من المطعم في آخر الليل، بالقميص الأبيض والكرافتة الحمراء، قالت: لا أحد يراك.

قلت أعمل في مكانين، لأجمع أكبر قدر من المال وأعود.

قالت: هذا كثير.

قلت: إنني مستعد أن أستقيل من أجل عيونها من كل أنواع العمل وأتفرغ.

وضحكت..

وقالت: لا...لا تفعل لكن تعال؛ لنتجول قليلاً على البحر.

اتفقت أن أراها في أيام الأجازة، لنتسكع، ونأكل أبو فروة، أو جيلاتي وندخل السينما، وذهبنا سوياً للملاهي.

قالت إنها وحيدة بلا أسرة، تعيش مع جدتها، وأنها سعيدة لأنني أخاها.

وكانت تسألني هل ذهبت لبيوت الدعارة؟ وماذا فعلت هناك.

سألتني: هل يمكن أن أذهب معك مرة؛ لأرى ما تقول، وقلت مستحيل.

لكنني اصطحبتها لشارع سنجرو، وعادت من مشاهدة الشواذ تكاد تسقط من الضحك.

وحكت لخالتي تولا تفاصيل التضاريس المنتفخة، وعنفتني تولا.

-٢٦-

الشتاء ثقيل، ولا يريد أن يمضي.

تجولنا على شواطئ باليو فاليرون (فاليرون القديمة)، ودخلنا بعض فنادقها، أحد الفنادق كان مخصصاً بالكامل للدعارة، في بهو الفندق طالعنا كاتالوجات، لفتيات شديدات الجمال والعذوبة، استوقفتنا إحداهن وكانت الأعلى سعراً، طلبنا مشاهدتها، حضرت، كانت من المنيا.

على البحر، يباع أبو فروة (الكستناء) المشوي على الفحم بكثافة، وأجمل مطاعم السمك، الجمبري والمحار والقشريات والسمك، في فاترينات من الثلج، وقبل دخول المطعم يمكنك تصنيف طبق كما تريد، وسمكة من كل نوع.

الشتاء يغطي رءوسنا بالكآبة، نحن من مواليد الشمس، ولم نتعود على غيابها يومين أو ثلاثة، لكنها هنا تختفي بالأسابيع.

******

في فبراير، كنت قد تعبت من رؤية البحر، والاشتياق لأمواجه، وفي يوم صحو، اندفعت، وخلعت ملابسي، وارتميت داخل الماء والملح، صفرت المياه في أذني من البرد، وارتعشت، قضيت دقائق وخرجت.

لم يكن على البحر سواي، داخل البلاج الخالي في الشتاء ،ومراهق ومراهقة، يتبادلان القبلات، وقد فتح قميصها وتدلى ثديها الوليد الجميل، وهو ينظر للحلمتين، ويعود ليرتشف من شفتيها،مررت بجانبهم وارتديت ثيابي، لأترك لهما المكان خالياً.

******

حكيت لسولا ما قرأت عن كازانتزاكس والمسيح المصلوب من جديد وزوربا اليوناني وكفافيس الشاعر اليوناني السكندري.

وقالت إنها لا تحب الأتراك.

فقلت: ولا أنا.

ونصحتها بأن تحبني أكثر من ذلك المدعو: «تاكي»؛ لأنه كان جباناً ويستغل طيبتها.

فقالت إنها ستغضب إن قلت ذلك عن تاكي مرة أخرى.

******

اعترضنا رمضان ، أمام المقهى، أنا وسولا وكنا عائدين من السينما، وهي تتأبط ذراعي وتغني: «ساغاباو ماكوس.. ساغاباو أكوس»، (حبيبي اسمعني..حبيبي شاهدني..)، وأنا أقلدها رافعاً عقيرتي.

قال رمضان: واللّه زمان يا تلموذ.

قلت: أهلاً.

اقترب وقال: وإيه الحتة الصابحة دي؟

ومدَ يده ناحية سولا فقفزت صارخة.

دفعته في صدره بعيداً عنها، فاستدار ولكمني في حاجبي.

تذكرت أيام النادي، وظلت شوارع «تزيزفيز» يومين تتحدث عن لكمة نالها رمضان وأسقطت نصف أسنانه الأمامية، ولم أتوقف عن الضربات المتوالية في بطنه، فانكفأ ونلت رقبته تحت ذراعي وضغطت عليها، ولم أشعر إلا بمن يرفعونني من فوقه، وهو يلتقط الهواء ليتنفس بصعوبة.

كان وجهه أزرق دامياً، والدماء تسيل من فمه وحاجبي ينزف.

واستعاد الحياة بعد أن شهق مرتين وثلاثاً، وهدد بضربي بالموسى، وتوعدني بإبلاغ البوليس عني، وقلت لا يهمني؛ لأنني مسافر خلال شهر، وتوعدته بأن أقتله في المرة القادمة.

في البيت تكهرب الموقف.

وانعقد اجتماع عاجل، وحضر نبيل وبقية شباب الصعايدة، للاستعداد لأي تصرفات ولضرب رمضان.

وجرت سولا على خالتي تولا، ونزلت لترى حاجبي، ومعها حقيبة الإسعاف.

قالت إنني أحمق، مثل كل الرجال.

وبعد أن ضمدتني، وأعطتني حقنة لأنام، ارتدت ملابسها وخرجت.

راحت لمقهى العربجية المشتعل بالرواد.

رمضان هناك مازال ينزف ويضع القطن بين فكيه، ويشرب ويتوعد بالانتقام.

طلبت خالتي تولا صاحبة المقهى اليونانية وواحداً من المصريين يجيد اليونانية.

وجاءها العملاق سيد، وأوقفته على رأس رمضان.

واستخرجت من حقيبتها عدداً من قصاصات الصحف.

قالت إن هذا الرجل، المنشورة صوره في الجريدة، وهو يطارد المجرمين، هو زوج ابنتها، وهو مدير أمن سالونيكي، ويتمنى أن يخدمها.

ويمكنه الوصول لأثينا في ثلاث ساعات.

وإنها لن تتردد في القبض على كل من يتردد على ذلك المقهى، إذا اقترب أحد من أولادها الساكنين معها في البيت، أو أبلغ عنهم الشرطة.

وتوجهت لرمضان قائلة: أما أنت فقد اعتديت على طفلة قاصر عمرها ١٧ عاماً، والبنت جاهزة للشهادة، وتلك فقط عقوبتها الحبس سبع سنوات على الأقل.

وتركت على المنضدة صورة من بطاقتها، ومن الجرائد، للتأكد من صاحبة المقهى مما تقول.

******

لمحتها على سريري بين اليقظة والنوم، وكنت مخدّراً.

قالت: هل تتذكر يوم خرجت لأطلي حجارة الرصيف، مع حلول الصيف، واحدة بيضاء والأخرى سوداء؟

يومها كنت أعرف أسماءكم بالكاد وخرجتم خلفي، وأصر مصطفى أن أستريح ويدهن مع الشباب ليس رصيف بيتنا فقط بل رصيف شارعنا بالكامل.

يومها شكرني كل الجيران، وأنا صرت معروفة في كل المنطقة.

قلت هامساً: أنا لم أنسَ.

وعقب دهان الرصيف، دخلنا بملابسنا المتسخة الحمامات، وخرجنا بالشورتات، ووقفت لأرقص معك «سلو» في حديقة البيت.

قالت: أنت مجرم.

ظلت تزورني طوال الليل، وقلت لها ألا تخاف؛ لأن الصعايدة لا يموتون. فضحكت.

******

جاء نبيل وساعدني في حزم حقائبي، وكان يروح و يجيء، بلا توقف.

سولا لم تنقطع عن مراسلتي، وتزوجت وسافرت لإيطاليا،ومنها لأمريكا،وماتت جدتها، ودرست الفن.

كنت أكتب لها بالإنجليزية، وأشجع من أجل عيونها أوليمبياكوس، وأستمع بين الحين والآخر لـ« سا غاباو ماكوس».

خرجت مع سولا لأودع شوارع أثينا، كان يوم أحد، وفي وقت العصر، تغرق الشوارع بالبهجة والألوان، يستحيل أن تلمح شاباً أو فتاة بقميص أو بنطال أسود أو بني أو كحلي، إنهم يرتدون ألوان قوس قزح بكل درجاتها، ويرقصون ويغنون، وأنا معهم.

وأعطيت سولا مائة دراخمة كتبت عليها اسمي؛ حتى تتذكر دائماً أخاها.

وصعدنا جبل بلاكا عند مطعم فلاخوس وبيت أورانيا، وكان المطعم مغلقاً في الصباح، ونزلنا من الجبل لميدان سي دغما؛ لنطارد الحمام، وأودع ليلى القبطية سمراء بورسعيد.

أعطيت لليلى لوحاً من الشيكولاتة ووردة برية كالمعتاد، كانت تصبغ فمها الساحر بروج بلون الموف القاتم، ولوّنت أظافرها من شفتيها، وقرط موف عملاق يرقص على عنقها الطويل، وذيل الحصان يعقصه شريط حريري موف، وبعد أن دفعت الحساب، غمزت ليلى على سولا قائلة: ذوقك حلو قوي.. حبيبتك؟ ففهمت سولا وضحكت وهتفت قائلا: ياريت.. لكنها أختي.

وقلت لليلى إنني جئت لأودعها، ورحلت.

قبل أن أعبر الشارع، هرولت خلفنا، واستوقفتني قائلة: "إنت ماشي فعلاً ؟؟.مع السلامة هاتوحشني.

هاشوفك لما ترجع.. مش عايز حاجة؟"

كانت قد تركت خلفها الكافتيريا والرواد.

قلت: أشوفك بخير.

قالت: لا إله إلا اللّه.

قلت: محمد وعيسى نبيا اللّه.

******

وضعت حقائبي في التاكسي، ونزلت سولا واحتضنتني باكية، ورفعت عيني ورأيتها هناك، تولا واقفة عند الشرفة، هرولت على السلم صاعداً، ولفت حول عنقي كوفية صوف كانت تصنعها، وقالت مختنقة: «اعتن بنفسك».

-٢٧-

بعد ربع قرن، رجعت أثينا.

بائع لفائف اللحم مع البيرة كرياكوس كان الوحيد الباقي من ميدان أمونيا.

انهدم مقهى الشطرنج العتيق، وصار مطعم فاست فود، ولم تعد الكافيتريا تتوسط ميدان سي ديغما"، وعجزت عن تحديد مكانها.»

سألته وسط صخب الميدان: هل تتذكرني؟

كنت أعرفك من ٢٥ عاما قال: يا!!!!ه.

انتهى من الزبائن والميدان مازال ممتداً أمامنا، وجلس إلى جواري.

قلت أحدّث نفسي: جرى بنا العمر يا كرياكوس.

وسمعته يحدِّث نفسه: أنا عجوز لكنني أعمل؛ لأنني لو توقفت لن أجد الطعام.

وقفز طفل عراقي يتسول.

وقام الشيخ كرياكوس محنياً على الطاولات يمسحها.

في مدينة كانت لا تعرف جائعاً.

******

على مدخل بلاكا تذكرت عجوز محطة الأتوبيس، التي كنت أطارد أحلامها، بخرافاتي عن الزواج، لا بد أنها ماتت وتضحك الآن.

كنت قد صرت صحفياً، وحصلت على تأشيرة مميزة من الملحق الثقافي بالسفارة.

وكان معي صديق، نصدر سوياً جريدة خاصة، وسافرنا لنبحث إمكانية طباعتها في اليونان.

لكنني كنت - بالإضافة لما سبق - أبحث عن هدف آخر.

حضر نبيل بطل الماراثون، وكان مازال يعمل، ومنحنا جارسونيرة لنقيم فيها، وبدأت أبحث عن شقيقي الضائع في اليونان.

عقب عودتي من هناك، سافر أشقائي الثلاثة لأثينا، ورجع اثنان، وتخلف الأصغر.

كانت الحياة تمضي به على عكسنا جميعاً، كان وسيماً، وقرر البقاء هناك، واشترى شقة تمليك، وكانوا يتندرون لأن صاحبة العمارة تطارده للزواج منه، وبعد سنوات أرسل لوالدي ليساعده، واشترى مصنعاً للدباغة..

انقطعت أخباره تماماً، وكان والدي يزور عمتي، عندما همست بأن أحد أثرياء أسيوط سافر اليونان، وشاهد حاتم هناك.

والدي كان منهاراً، وكنت متهماً بأنني من فتح الطريق لضياعه.

******

الصحفي صديق الرحلة اشترط من اليوم الأول للسفر، ألا يتناول لحم الخنزير؛ ولأن كل المطاعم بلا استثناء تستخدم دهن الخنزير، صار طعامنا أنواعاً من الجبن محددة، وفاكهة وخضراوات وفولا.

في اليوم الثالث صرخ بأنه لن يتحمل، ويريد أن يأكل لحوماً وأسماكاً وإلا سيغادر بلا رجعة.

استعدت أياماً قديمة.

وتذكرت ماريا السكندرية، كنا نقطع خمسين كيلومتراً لنأكل عندها الفول بالسمن البلدي والطعمية، لكنني أبعدت الفكرة تماماً؛ لأن عمرها كان وقت أن غادرت خمسين عاماً.

كانت في ميناء بيريا، وقررت أن أذهب هناك؛ لأتحسس آثارها القديمة.

في الطريق صادفنا عمالا مصريين، سألت عن مطعم يبيع الأكل المصري، فقالوا جميعاً: اسأل عن ليلى.

مطعم ليلى، خمسون طاولة في الشارع، بخلاف طاولات بصالات المطعم المكيف، استرحت بالخارج على أحد المقاعد الوثيرة، واستراح صاحبي بعد أن قرأ قائمة الطعام، ووجدها غنية بالملوخية بالأرانب والكشك ومحشي الكرنب وكباب الحلة.

طلبت بيرة، وبعض السلطات، ومضى أكثر من نصف ساعة، فقررت أن أدخل المطعم؛ لأتعرف على نوعية الطعام واستعجال الطلبات.

عند مدخل المطعم رأيتها، وسط الزحام، ليلى البورسعيدية السمراء، تشخط وتنطر، والبعض يعاكسها، وجاء دوري.

ما زالت جميلة، برغم أنها تعدت الخامسة والأربعين، وقد عقصت شعرها ذيل حصان.

قلت لها إنني من مصر، فرفعت حاجبيها الجميلين في مشاكسة قائلة: يا مرحب؟ ما كل دول مصريين.

وكان الزبائن من حولنا، يهتفون صارخين: ليلى.. لولا، استعجالاً للطلبات.

قلت لها إنني قادم حالاً، وصحفي بإحدى المجلات فانتبهت.

وقالت: أي خدمة؟

قلت لها: أريد أن آكل.

قالت: حاضر.

قلت :كما أنني أحبك منذ ٢٥ سنة.

تنمرت كأنثى وقالت: نعم؟

قلت: وتركت عندك أمانة وردة برية من جبل بلاكا.

حدقت طويلاً، وصرخت.

قالت: لا تتحرك وسأعود بعد دقائق.

عادت في قمة الأناقة، وصارت منضدتنا أهم طاولة، كانت ترتدي صديرياً معقوداً برباط، يكشف عن بطنها الأسمر العاري، وبنطلوناً أبيض، وصففت شعرها بعناية، ووضعت قليلاً من الماكياج.

******

تزوجت القبطية الجميلة من فاسيلاه، هكذا قالت.

سألتها: أين هو لأقتله، فقالت ضاحكة: قاعد فوق ويا ريت تعمل كده.

بقيت في اليونان، يطاردها المعجبون، من كل مكان، وكنت واحداً منهم.

لكن واحداً من اليونانيين، رآها وأصيب بالجنون، فاسيلاه، ابن أحد أكبر العائلات ثراء في أثينا، لم يتحمل جمالها وطاردها في كل مكان، لكن قلب ليلى كان مستحيلاً بدون زواج وكنيسة، فتزوجها.

أنجبت خلال عامين ولداً وبنتاً، واشتعلت النار في العائلة؛ لأن ابنهم الأثير الذي تتهافت عليه بنات عائلات أثرياء أثينا، اختطفته تلك الساحرة السمراء.

عندما يضيع أحد البحارة في البحر المتوسط يقول اليونانيون إن كليوباترا اختطفته.

وإن كليوباترا أخضعت بالسحر الأسود يوليوس قيصر، ولما مات استطاعت وهي عجوز شمطاء أن تسحر مارك أنطونيو؛ ليهجر القتال والجيوش من أجلها، ولولا أنها انتحرت للقي أكتافيوس نفس المصير.

عرضت العائلة على فاسيلاه الابن أن يطلّق الساحرة المصرية السوداء، لكنه رفض.

وعرضت أن يعوّضها بنصف مليون دولار؛ لترحل لمصر، مع أولادها، ويطلقها، ورفض مرة أخرى.

ومات أبوه غاضباً.

وراح فاسيلاه لحضور الجنازة، مع زوجته، وفي اليوم الثالث، حضر محامي العائلة، وفتح وصية للأب، تشترط حرمان فاسيلاه وزوجته من الميراث.

لم يمرض فاسيلاه الابن- هكذا حكت ليلى- ولم يصب بذبحة صدرية، لكنه بقي في مكانه، صحيح البدن والعافية، لكنه لا يتذكر اسمه.

حملته ليلى عائدة، وعندما وضعت يدها في جيبها لم تجد سوى أصابعها.

كان عليها أن تدافع عن زوجها ليأكل، وطفليها، ولم يكن أمامها سوى بيع ساعة زوجها ومصاغها، وافتتحت في بيريا مطعماً للفول والطعمية، واحتضنها الصيادون المصريون وعمال الميناء واليونانيون المصريون المشتاقون لروائح مصر، وظل المطعم يتطور بالمحشي كرنب والصيادية والملوخية والكباب، حتى صار من أكبر مطاعم أثينا.

تراجعت للخلف، وأزاحت بيديها الجميلتين ذيل الحصان، وسقط شعاع من الشمس على كتفيها البديعتين، ورفعت كأساً من الليمون، قائلة: عندي الآن ست سيارات تنقل الطعام للزبائن، وسيارتان ملاكي للولد والبنت، وكلاهما في الجامعة،

واشتريت المبنى؛ لأسكن فوق المطعم.

قلت: وزوجك؟

قالت: فوق هل تريد أن تراه؟

أكلنا على حسابها، أول يوم، وصارت سهرتنا كل يوم في مطعمها الجميل.

وفي آخر أيامنا ودعتنا باكية، وقالت: اسألوا عني ولا تنسوا أختكم.

******

ساعدتني ليلى في العثور على شقيقي.

شكلنا فريقاً للبحث.

وبعد ثلاثة أيام اتصل أحدهم، وقال إنه جالس أمامه الآن على المقهى.

رأيته ولم أتمالك، وبكيت منهاراً.

كان أحد المتشردين في الشوارع.

يطلق شعره حتى ركبتيه، ويرتدي بنطلوناً ممزقاً، وحذاءً من نوعين مختلفين بكل قدم.

وفاجأته بوجودي.

تحدث بلا مشاعر، رافضاً أن يعود لمصر.

باع المصنع والشقة التمليك، ولم يتزوج، وبدأ ينقطع عن العمل، وعجز عن سداد إيجار المسكن، ونام في الشوارع.

كنت قلقاً، واصطحبته لبلاج فولا، لأرى جسمه، كان يبتلع مشروب العصير بصعوبة، ويدخن بشراهة، ولم يكن على جسمه آثار حقن، وهو ما كنت أخشاه.

طلب مبلغاً من المال، وأخذه بدون شكر، وانصرف.

-٢٨-

رجعت لليونان بعدها بثلاث سنوات أخرى.

كان نبيل بطل الماراثون قد عاد لأسيوط، نائماً على ظهره، مصاباً بتباعد في فقرات العمود الفقري، يمنعه من الحركة.

رآني بعد أن جئت مهرولاً للمستشفى فقال: نفسي أجري.

أما شقيقي فقد قبضوا عليه، بتهمة التشرد والتهرب من سداد الضرائب،

واتصلت باليونان؛ ليسدد أحدهم تكاليف ترحيله للقاهرة، وقص شعره واستحمامه.

وقضيت منذ وصوله مطار القاهرة ثلاثة أيام من العذاب، أتابع الترحيلات من سجن لآخر، وأمن الدولة يشك أنه من عناصر القاعدة، حتى أطلقت سراحه في أسيوط.

وخرج قائلاً: إن أحداً لم يجامله؛ لأنه حضر ضيفاً على نفقة الحكومة المصرية.

******

كنت عندما سافرت للمرة الثانية رئيساً للاتحاد المصري للشطرنج، وأرسلت جواز سفري مع أفراد البعثة المسافرة لبطولة العالم للشطرنج في بورتو كاراس، وتعثرت إجراءات الحصول على التأشيرة،وكانت اليونان منضمة حديثا للاتحاد الأوربي، وأخبرني مدير الاتحاد بالموقف، وذهبت للسفارة وأخبرت الموظف المختص أن هذه المعاملة لا تليق، ويبدو أن هذا أغضب القنصل التي كانت تتابعنا من كاميرات المراقبة، فخرجت غاضبة.

قالت إن أوراقنا ناقصة، وأنها لا تصدق أننا بعثة رياضية، وتريد ما يثبت ذلك.

وقلت إن قرار سفرنا موقع من رئيس مجلس الوزراء كبعثة رسمية، وجوازات السفر، بنفس الأسماء الموجودة في قرار الدولة، فقالت إنها لا تعترف بذلك وتريد اعترافاً بذلك من اليونان.

خاطبت الجهة المنظمة للبطولة في اليونان، وأرسلت ما يفيد أننا ممثلون لقارة إفريقيا، في بطولة العالم.

وكان الوقت يمضي.

وقبل السفر بعشر ساعات أخبرتنا أنها وافقت على منح التأشيرة لأربعة لاعبين ورفضت الباقين.

وكان هذا معناه أن يسافر نصف الفريق بلا مدربين ولا إداريين وألغيت السفر.

عقدت مؤتمراً صحفياً بالاتحاد، عن منع بعثة مصر الدولية من السفر لحضور بطولة العالم في الشطرنج، ونشرته جريدة الأخبار وجريدة الأهرام.

وتدخلت القنصل من خلال أحد معارفها الفاسدين في جريدة الأهرام، ونشرت تكذيباً لما نُشر، وادعت أنني لم أقدم ما يفيد أنني أعمل صحفياً، وأنني بلا عمل ولهذا رفضت التأشيرة، برغم أن جواز السفر مكتوب بداخله المهنة.

******

بعد شهر وبالمصادفة، جاءت بطولة العالم للكبار في اليونان، فحملت أوراق البعثة لوزارة الخارجية المصرية، مرفقاً بها تقريراً بما حدث للبعثة السابقة، وردود القنصل الكاذبة، وأرسلت الخارجية رسالة للسفير لإنهاء الإجراءات وإبلاغها بالقرار.

وأسقط في يد القنصل المتعجرفة.

وطلبت إجراء مقابلات على حدة مع كل عضو من البعثة.

وعندما جاء دوري حضر السفير، وكان ضخماً ووسيماً.

وسألني: هل أنت صحفي؟ وكانت هناك مترجمة حاضرة، فقلت: نعم، قال: وما الذي يثبت ذلك؟

قلت: المهنة موجودة على جواز السفر.

وقدمت له عدة جرائد ومجلات عليها صوري، كرئيس تحرير ومدير تحرير لعدد من المجلات والجرائد.

فسأل المترجمة.

ولما أوضحت له طبيعة عملي بوضوح، أضفت أن المسافرين بعضهم أبطال للعالم للشطرنج تحت ٢٠ سنة، واستخرجت بعض المجلات الأوروبية، التي تشير لذلك، وطوّح بيديه في الهواء، وكان من الواضح أنه صدقني تماماً ومستاء من تصرفات القنصل.

بعدها انتصب واقفاً؛ ليتحدث معها باليونانية، وقال إنه لا يريد مشاكل، وأن من الواضح أنها تعنتت في منع التأشيرة الأولى، وأن كل ما قالته بشأنها غير صحيح.

استوقفته باليونانية معتذراً.

صاح متراجعاً: واووو تتحدث اليونانية؟

قلت: نعم قليلاً، أتحدث اليونانية وأشجع نادي أولمبياكوس.. وأحب نيقوس كازانتزاكس وأندريوس بابا اندريو والخورياتيكي (السلاطة اليونانية) والبوزوكي وموسيقى زوربا.. وتيودراكيس، وعموماً أنا آسف لمقاطعتك.. لكنني رأيت أن من غير اللائق أن أتظاهر بأنني أستمع للغة لا أفهمها.

فصاح: لا.. لا....

وزمجر ناحية القنصل وهمهم غاضبا: .. كازانتزاكي.. تيودراكيس... أوليمبياكوس..

وصافحني بحرارة وخرج.

جلست القنصل تتفحصني، كمصيبة، هبطت عليها من السماء، وكنت حريصاً على أن أنظر نحوها مستهيناً بوصفها ساقطة.

كانت ما زالت كما تركتها: قصيرة وشريرة وماكرة.

سألتني خائبة: هل أنت صياد؟

وفهمت ما تقصد؛ لأنها تقصد أنني أحد عمال عزبة البرج الغلابة الذين يزدحم بهم ميناء بيريا.

فقلت: لا.

قالت: وكيف تعلمت اليونانية؟

قلت: كنت أسافر كثيراً هناك، وفي بلدنا كان هناك جرسون يوناني يدعى خارالامبو، نحبه كثيراً، لأنه مصري، وتعلمت من ابنته اليونانية.

فاحتقنت.

وبعد نصف ساعة حصلنا على التأشيرات.

******

في مطار أثينا كان الفريق رجالاً وآنسات معي، ووسط الزحام، صرخت باليونانية على ضابطة شرطة، قائلاً: ساعدينا يا جميلة، فابتسمت، ونقلتنا على ماكينة خارج الطابور، وأنهت إجراءاتنا في دقائق، وقالت في أريحية يونانية جميلة: مرحباً.. مرحباً.

كانت روائح السوفلاكي والأوزو ونسائم باليو فالیرون ودفء بيوت كاليثيا وأيام تزيزيفيز تنطق من بين عيونها، وأنا أداعبها بأننا أبطال العالم في الشطرنج، وأنها ضابطة شرطة، لكننا لا نخافها لأن لدينا أحصنة وملوكاً وعساكر وفيلة، فانبعثت ضاحكة، وتطايرت نسائم شعرها الذهبي، وقالت: أراكم وأنتم فائزون، بالتوفيق.

******

عند العودة لمصر، رجعنا من سالونيكي لمطار أثينا، وكان أمامنا ترانزيت ١٢ ساعة للطيران للقاهرة، ووقفت مهزوماً لنصف ساعة، وفي النهاية لم أتحمل وتركت حقائبي مع المدرب وهربت من المطار.

بحثت عن تاكسي، واستوقفت أحد العابرين لأساله عن اتجاه سوق مونستراكي.

سأل في دهشة: ولماذا تركب من هنا؟ عليك بالمترو من داخل المطار.

حملني المترو الفاخر كالسهم، لوسط المدينة.

لم يعد في أثينا ذلك المترو الخشب القديم، وفهمت وفقاً للخرائط، أن هناك سبعة خطوط جديدة لمترو الأنفاق.

في سوق مونستراكي، كانت الشوارع خالية، لم تعد هناك دراخما، وسألت عن تي شيرت وكان سعره لا يقل عن ٤٠ يورو، وشبشب وكان سعره ثمانين يورو وانصرفت حزيناً، كانت الأسعار في اليونان ثلاثة أضعاف ألمانيا، والمدينة تئن تحت وطأة اليورو.

خرجت من السوق وكان الباقي عشر ساعات.

لاح من بعيد مدخل جبل بلاكا،

صعدت نحو الأكروبول،

كل المطاعم والبيوت القديمة انهدمت، وصعد مكانها عمارات ودكاكين تبيع منتجات الصدف والعظم والتذكارات للسائحين.

دُمرت بلاكا،

كان بيت أورانيا، من دور واحد وتنساب من سور حديقته الصغيرة روائح شجرة الياسمين الوحيدة، ويسهرون في الصيف على سطحه للاستمتاع بالهواء الجميل، وأثينا تحت البيوت تتلألأ من بعيد،

نسفت السنين معالم المكان، وصعدت يائساً، وفوجئت بأن «فلاخوس» مطعم الفلاحين مازال منتصباً.

توقفت في مواجهته، ولم يكن هناك أثر لبيت أورانيا.

على باب المطعم كان هناك شاب في الأربعينيات، لاحظ تأملي للمكان، قال: أي خدمة.

قلت: أسأل عن مانولي؟

فقال: مانولي من؟

قلت: صاحب المطعم.

فقال: أنا صاحب المطعم.

قلت: أنا آسف هل تعرفه؟

قال: لا.

قلت: مانولي أخو كوستا.

قال: لا.

قلت: ربما يكن مانولي باع المطعم لشخص قبلك.

قال: لا.. لم يكن المالك قبلي اسمه مانولي.

صعدت مع جموع السائحين نحو الأكروبول.

وتذكرت اعرف نفسك.

وبيت صموئيل وإيلين.

وقبلات أورانيا، وأغنيات المساء.

ورجعت متدحرجاً لألحق بالطائرة.

استوقفني في الزحام أحدهم، ليسألني: هل وجدته؟

قلت: من؟

قال: مانولي.

قلت: مانولي منْ؟

قال: صاحب المطعم.

انتبهت إلى أن محدثي صاحب المطعم الجديد.

قلت: لا.. شكراً.

******

غادرت إيلين اليونان، ورحلت مع طفلتها وصموئيل لهولندا، وزارتني بعدها بعشر سنوات في أسيوط، وكانت قد استقرت في إندهوفن حيثُ مصانع أبيها للسفن،

وكانت مبهورة بالنيل.

وحرصت على زيارة شقيقاتي البنات ومشاهدة ألبوماتهن.

وذهبت معها لبيت عائلة زوجها في طهطا، وفي الليل سمعنا طلقات رصاص، ولما عرفت أن هناك فرحاً أصرت على الذهاب، وجلست مستمتعة برؤية بنات الفلاحين بملابسهن المزركشة.

قالت: لماذا هن ملابسهن زاهية هكذا؟

فقلت: لأنهن لا يعرفن غير الحزن، ويرتدين السواد طوال العام.

قالت: هل مازال الرجل في الجنوب يغتصب المرأة بأصابعه؟

قلت: نعم أحياناً.

وفي منتصف الفرح رأت المنديل والدم وقفزت صارخة.

- صموئيل صموئيل.

ولما رجعنا للبيت قال صموئيل:

أنت هاتوديني في داهية.

******

وفي الساعات الأخيرة تذكرت خالتي تولا.

نزلت كاليثيا، وتجولت وحيداً، بالقرب من السينما والشارع التجاري.

وكانت تزيزيفيز، على بعد محطتين، وتذكرت ملامحها جيدا.

كانت لا تبكي أبداً..

لكنها احتضنتني باكية.

وقلت لها إنني سأرجع..

لأسأل عنها..

وكنت أعرف.. أنني لا أكذب.

وها أنا ذا أفعل، وأسأل عنها.

كنت خائفاً أن أعرف أنها ماتت، تركتها وعمرها سبعون عاماً، ومضى ثلاثون سنة، وكنت أراها من بعيد ..في ذلك المكان..مازالت هناك..

خالتي تولا.

إصدارات

دار نشر
أنباء روسيا
Russia News
www.russiannewsar.com

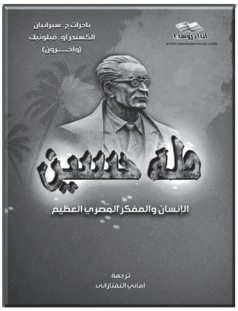

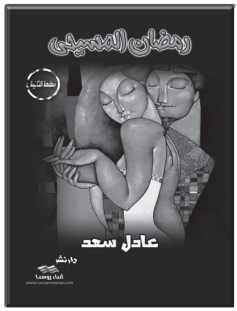

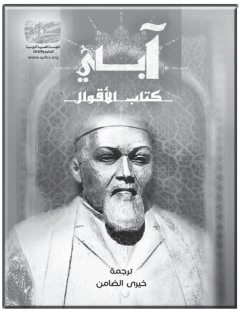

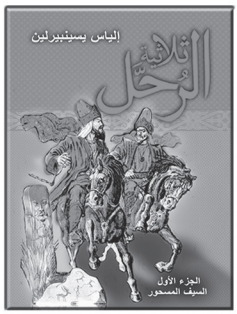

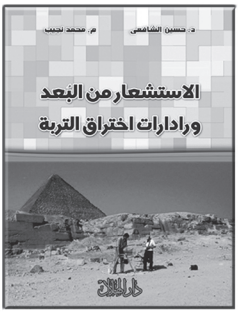

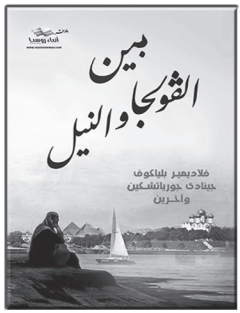

أنباء روسيا
Russia News
www.russiannewsar.com

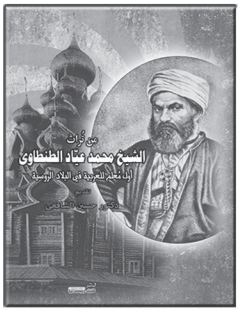

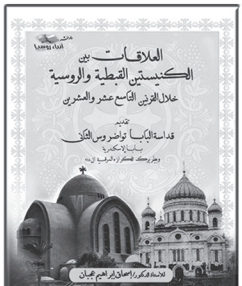

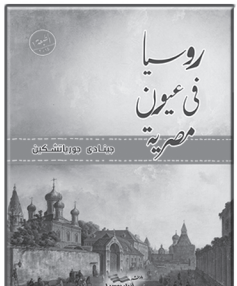

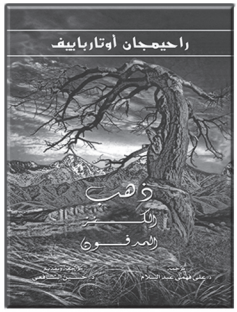

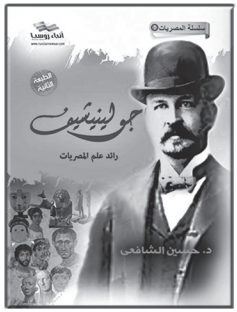

أنباء روسيا
Russia News
www.russiannewsar.com

أنباء روسيا
Russia News
www.russiannewsar.com

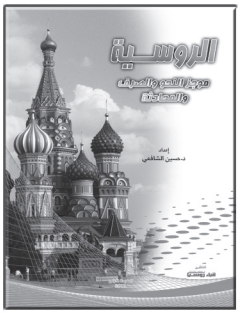

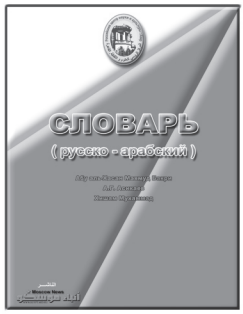

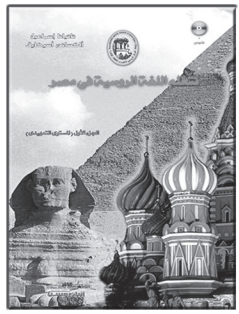

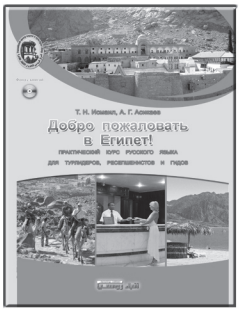

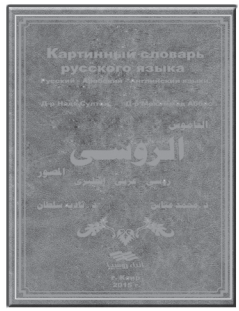

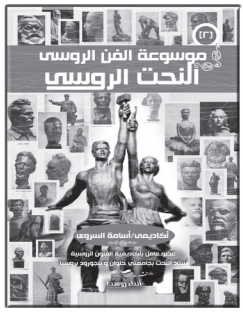

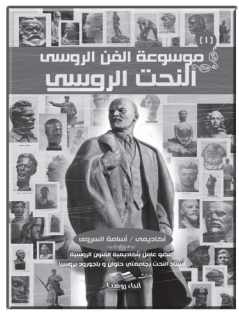

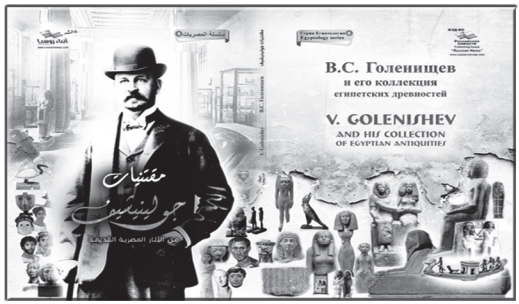

أنباء روسيا
Russia News

www.russiannewsar.com

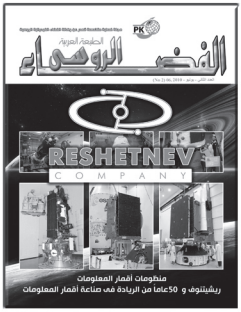

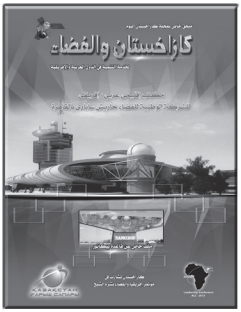

دار نشر

أنباء روسيا
Russia News
russiannewsar.com

www.russiannewsar.com

والمؤسسة المصرية الروسية

للثقافة والعلوم

www.a_rfcs.org

رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير

د. حسين الشافعى